مختصر كتاب

مفاهيـــم ينبغي أن تُصَحّح

للشيخ الفاضل

محمد قطب

رحمه الله رحمة واسعة

اختصار

(أخت الأحرار)

مقدمة المختصر

ثقة بهمّة الحكيم وفطنته.. وحسن أدائه ونصحه.. قال عنه الشاعر:

إذا كنت في حاجـة مرسلا ❖❖❖ فأرسل حكيما ولا توصه!

فكيف الحال إذا كان الحكيم هو الموصي؟ وكيف إذا كانت مواقف هذا الحكيم موافقة لمضامين وصيته بحذافيرها؟ وإلى أي درجة ستبلغ وصيته في النفوس حينها؟ كيف وإن جاءت وصيته في كلمة وداع أخيرة منه لأمّته؟ وهو المشهود له من قِبلها بالنصح لها والاستماتة بالدفاع عنها؟ ومجاهدة أعتى أعدائها؟!

الجواب رآه كل مهتم ومتابع بعد كلمة مجدد فريضة الجهاد في عصره الشيخ الشهيد بإذن ربه أسامة بن لادن ﷺ وأرضاه الأخيرة، من تلقي كلمته بالقبول ونشرها صوتا وكتابة، ومن ثم سرعة تداول هذا الكتاب الذي أثنى عليه: في قوله:

(فالسبيل لحفظ الأمة وثوراتها اليوم من الضلال والظلم هو بالانطلاق في ثورة الوعي وتصحيح المفاهيم في شتى المجالات ولا سيما الأساسية وأهمها ركن الإسلام الأول، ومن خير ما كُتب في ذلك كتاب: "مفاهيم ينبغي أن تصحح" للشيخ محمد قطب).

وإيمانا مني بنفاسة هذا الثناء عدتُ وقرأت الكتاب مرة أخرى، وبتأمل جديد واستشعار لحياة ذاك العبد المجاهد، الذي نحسبه أنه تعبّد الله بـ: لا إله إلا الله كما أرادها الله حتى توفاه الله..

وسيجد القارئ الكريم في هذا الكتاب معاني رائعة سامية لهذه الشهادة العظيمة "لا إله إلا الله" معاني مختلفة لما هو سائد عنها اليوم، وسيسعى - بقدر صدقه مع ربه - ليجدد إيمانه، وينتفض لدينه؛ حين يدرك القصور الكبير في فهمه لها، وبعده الشاسع عن تطبيقها في حياته، وحرمان ذاته قبل - غيرها - من عزتها وفضيلتها..

وكرامة لوصية الشهيد ونصحه، وتقديرا لأنصاره قمت باختصار الكتاب اختصار شديد - إلى سدسه تقريبا - أملا أن يقرأه أكبر عدد ممكن من أتباع الشيخ ومحبيه،، وعسى أن أكون وإياهم ممن قال الله عز وجل عنهم:

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزُّمَرِ:١٨].

الأثنين

١١/٧/١٤٣٢هـ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧].



من المقدمة

لا شيء في هذا الوضع يحدث اعتباطا، ولا يمكن أن يحدث شيء واحد في حياة البشر اعتباطا! إنما يجري كل شيء في حياة البشر حسب سنة الله التي لا تتخلف ولا تحابي أحدًا من الخلق؛ ومن سنة الله أنه لا يغير نعمةٍ أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيم﴾ [الأنفَال: ٥٣].

❖❖❖

كل انحراف وقع في حياة المسلمين عن المنهج الرباني كانت له ولا شك عاقبته البطيئة أو السريعة حسب نوع الانحراف، ودرجة تفشيه، وموقف الأمة منه بحكامها وعلمائها وعامتها.. حتى إذا وصل الانحراف إلى حدّه الأقصى كانت عاقبته ما نراه اليوم من ضعف ومذلة وخوف، بدلا من الاستخلاف والتمكين والتأمين..

❖❖❖

تجاوز الانحراف منطقة السلوك، ووصل إلى المفاهيم الرئيسية لهذا الدين؛ ولازال كثيرا من الدعاة المخلصين ليظنون أن ما أصاب المسلمين قد أصابهم بسبب انحراف سلوكهم!

❖❖❖

إن لا إله إلا الله هي دعوة الرسل جميعا – صلوات الله وسلامه عليهم – من لدن آدم ونوح إلى محمد ﷺ وموقف الجاهلية تجاهها موقف واحد لم يتغير خلال التاريخ: موقف الرفض والصد والإعراض والجنوح والعناد..

❖❖❖

وهذا الكتاب محاولة متواضعة لتصحيح بعض المفاهيم الإسلامية، بردها إلى صورتها الأولى، المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرة السلف الصالح – رضوان الله عليهم– وإزالة ما علق بها من انحراف في أثناء المسيرة التاريخية للأمة الإسلامية..

الكتاب تناول خمسة مفاهيم رئيسية من مفاهيم الإسلام:

مفهوم لا إله إلا الله.

مفهوم العبادة.

مفهوم القضاء والقدر.

مفهوم الدنيا والآخرة.

مفهوم الحضارة وعمارة الأرض.

❖❖❖

مفهوم "لا إله إلا الله"

لا إله إلا الله هي الركن الأول – والأكبر– في الإسلام .. قبل الصلاة والصيام والزكاة والحج .. وقبل كل شيء في هذا الدين. ومن يتدبر القرآن يلحظ ولا شك الأهمية العظمى التي يوليها كتاب الله لقضية التوحيد .. قضية لا إله إلا الله، بحيث تشغل الحيز الأكبر من القرآن كله، وإن كان التركيز عليها في السور المكية أشد .

❖❖❖

القبيلة التي كان يولد فيها شاعر كانت تتيه فخرًا على بقية القبائل، فكيف بالتي يخرج منها نبي؟! فلماذا إذاً رفضت قريش دعوة النبي ﷺ ؟!

ذلك لعلمها أنها ليست مجرد كلمة تقال .. وإن جوهرها يعني نزع السلطة من أيديهم وردها إلى صاحب السلطان صاحب الحق في المنع والإباحة، والتحليل والتحريم !!

ومن أجل ذلك يفزع "الملأ" من دعوة لا إله إلا الله أضعاف أضعاف ما يفزعون من منازعيهم على السلطان الأرضي، ويجندون طاقتهم كلها لمحاربة الدعوة، ويستخدمون الجماهير ذاتها من بين الأدوات التي يستخدمونها لهذه الحرب، بتزييف الحقائق لها تارة، وتارة بالإرهاب!

❖❖❖

لم تكن الأصنام وحدها هي الأرباب المعبودة في الجزيرة العربية كما تلح بعض كتب التاريخ التي تحصر قضية لا إله إلا الله في إزالة ذلك اللون الحسّي الغليظ من الشرك، ولا كان الفساد مقصورًا على تلك المفاسد الخلقية من الخمر والميسر والزنا ووأد البنات وغارات السلب والنهب والمظالم الاجتماعية كما تلح كتب أخرى من كتب التاريخ!

لقد كانت لا إله إلا الله تستخلص النفوس من الشرك كافة، ولم يكن الشرك لونًا واحدًا وإنما ألوانًا متعددة ..

❖❖❖

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المَائدَة: ٥٠].

من لم يحكم بما أنزل الله فحكمهم عند الله أنهم الكافرون الفاسقون الظالمون :

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المَائدَة: ٤٤].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المَائدَة: ٤٥].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المَائدَة: ٤٧].

❖❖❖

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحَديد: ٢٥].

مقتضى الآية المشار إليها آنفًا إن إرسال الرسل وإنزال الكتاب ليس لمجرد التبليغ والإعلام، إنما لتحقيق هدف عملي واقعي في حياة الناس هو إقامة شريعة الله ومنهجه، وإخضاع الناس لهذه الشريعة وذلك المنهج، لأن هذا هو السبيل الوحيد الذي يؤدي

إلى قيام الناس بالقسط.. أي أن هناك عملاً ينبغي أن يتم في واقع الأرض بعد التصديق والإقرار، وبغيره لا يكون الهدف من إرسال الرسل وإنزال الدين قد تحقق، إنما يظل الدين شعارات مرفوعة بغير رصيد واقعي، أو أمانيّ في الضمائر. لا تقدم ولا تؤخر، ولا تغير شيئا في حياة الناس، والإشارة – في الآية – إلى الحديد والبأس، ونصرة الله ورسله، واضحة الدلالة في أن من بين الأعمال المطلوبة الجهاد في سبيل الله لكي "يقوم الناس بالقسط"

❖❖❖

هل هناك نص – أو منطق – يقول: إن جيلاً معينًا أو أشخاصًا بأعيانهم هم الذين ينبغي أن يتقيدوا بمقتضيات لا إله إلا الله، أما من عداهم فليس عليهم إلا أن يصدقوا بقلوبهم، وينطقوا بألسنتهم أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فإذا نطقوا بها – مصدقين بها – فقد تم المطلوب منهم كله، ولم يعد لأحد أن يطالبهم بعد ذلك بشيء! فإن هم "تفضلوا" من عند أنفسهم فعملوا بشيء من مقتضيات لا إله إلا الله فلهم الفضل، وإن لم يفعلوا فلا تثريب عليهم.. فقد حازوا الإيمان!!

❖❖❖

بين الدوافع والضوابط يتوازن كيان الإنسان، ويحقق غاية وجوده وهو في أحسن تقويم،
ولكنه لا ينضبط تماما في كل حالة، ولا يستمر على توازنه في كل حالة:
والمعصية تحدث بأحد سببين، أو بهما معا في وقت واحد: إما اشتداد ضغط الدوافع على الإنسان، وإما ضعف الضوابط في لحظة من اللحظات، أو باجتماع السببين معا في وقت واحد (شدة الدافع، وضعف الإرادة الضابطة التي تحدد المقدار والمسار)
وعلى قدر اشتراك العوامل المسبِّبة تكون النتيجة.. فحين يكون الدافع ضعيفا يمكن ضبطه بسهولة، أما حين يكون عنيفا فيتوقف الأمر على مدى قوة الإرادة، فإن كانت قوية فقد تكفي لرد الدافع تماما فلا تحدث المعصية، أو تحدث خفيفة عابرة مما عبر عنه القرآن باللمم، أما حين تكون ضعيفة فإنها تنهار أمام الضغط..
والإيمان بالله واليوم الآخر هو أقوى الأدوات المعينة للإنسان على مقاومة ضغط الشهوات، وبمقدار ما يكون الإيمان قويًا وراسخًا تكون قدرة الإنسان على الانضباط في داخل الحدود التي رسمها الله، أي تكون الطاعة لأوامر الله، والقيام بالتكاليف التي فرضها الله، وليس معنى هذا أن يخرج الإنسان من بشريته ويصبح ملكا لا يَعْصِي! ولكن معناه أن الطاعة والانضباط والقيام بالتكاليف تصبح في حياته هي الأصل، وغيرها هو الشذوذ العابر الذي لا يتلبث عنده ولا ينغمس فيه.

❖❖❖

لا جرم أن يصبح "المجتمع" الذي تنتشر فيه الأفكار الفاسدة عن "الإيمان" وعن "مقتضيات لا إله إلا الله" هو الغثاء الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ منذرًا محذرًا: (**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَتَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا، قُلْنَا: مِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: لا، أَنْتُم يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ**)! وتتداعى الأمم بالفعل على ذلك الغثاء، وهو قانع بالتصديق والإقرار، توهمًا منه أنه بذلك حائز على الإيمان!!

❖❖❖

المرجئة القدامى هم الذين وضعوا البذور السامة التي التقطها المرجئة المحدثون، واستنبتوا منها إسلامًا جديدًا لم يتنزل به كتاب ولم يُرْسَلْ به رسول: إسلامًا بلا تكاليف! أو قل: إسلام بلا إسلام!!

❖❖❖

إلى أي شيء استند المرجئة – القدامى أو المحدثون سواء – في أن كل المطلوب لإثبات الإيمان هو الإقرار اللساني بالنسبة للحياة الدنيا، والتصديق والإقرار بالنسبة للحياة الأخرى؟!

إن لا إله إلا الله ترفع السيف قطعًا، أي تمنع قتل من نطق بها، ولكن هل تعطيه صفة الإسلام؟! هنا موضع اللبس في الاستدلال بحادثة أسامة.

فحكم الله في القضية: أنه من قال لا إله إلا الله ولو كان متعوذًا لا يجوز قتله، ولكن إذا لم يلتزم بأحكام الإسلام فهل يظل يعامل على أنه مسلم؟!

❖❖❖

يحتجون بأن رسول الله ﷺ قال: **(مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ)** وقال – عليه الصلاة والسلام– : **(مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ)** أو ما في هذه المعاني..

ولكنا نحسب أن حديث الرسول ﷺ قد قصد به ألا ييأس أحد من رحمة الله، ولم يقصد به أن يفصّل منه المرجئة إسلامًا بلا تكاليف، ثم يزعموا أن هذا ما أراده الله بهذا الدين! ودليلنا أن رسول الله ﷺ لما سأله معاذ رضي الله عنه: يا رسول الله أفلا أبشر الناس؟ قال: **(لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا)**.

ثم إنه إن سامح الله أولئك المذنبين في الآخرة بعد أن يذوقوا العذاب على ما اقترفوا من الذنوب، فلم يخلدهم في النار، إنما شملهم برحمته الواسعة فأنقذهم من الخلود فيها وأدخلهم الجنة.. فهل يصلح أمر هذا الدين في الحياة الدنيا حين يصبح أهله – كلهم أو غالبيتهم – من الساقطين الذين يتهافتون في النار، حتى تنقذهم رحمة ربهم من الخلود فيها؟!

إن الواقع الذي نعيشه اليوم خير شاهد في هذه القضية، فالذل والهوان والضعف، وغلبة الأعداء الذين لا يرقبون في المسلمين إلاًّ ولا ذمة، وعدوانهم المستمر على كراماتهم ودمائهم وأعراضهم وأموالهم، هو الحال حين يكون الناس غثاء كغثاء السيل.. وهم لا يكونون كذلك إلا حين يكون إسلامهم هو إسلام التصديق والإقرار، بلا عمل يعمل من مقتضيات التصديق والإقرار.. فهل يقبل الله من عباده أن يضيعوا دينه، وينكلوا عن المهمة التي أخرجهم من أجلها، ثم يكون هذا هو الأصل الذي يفصَّل الدين كله على مقاسه؟!

إن المجتمع القوي الإيمان، الراسخ القدم في العمل بمقتضيات لا إله إلا الله، يستطيع أن يحمل في تياره ضعاف الإيمان، والكسالى والمتباطئين والمتثاقلين، ويمضي في طريقه يحقق أهدافه، ولكن حين يصبح كله – أو حتى غالبيته – من ضعاف الإيمان والكسالى والمتباطئين والمتثاقلين، فهل يقدر على شيء؟ وهل يصل إلى شيء؟!

❖❖❖

نقول: لا حرج على فضل الله، يدخل في رحمته من يشاء، ولكن الله هو الذي أنزل هذه التكاليف وفرضها على المؤمنين، وهو الذي قال: إن دخول الجنة لا يكون بالتمني مع القعود:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النِّسَاءِ: ١٢٣– ١٢٤].

لقد كان المرجئة القدامى على كلِّ ما حرفوا في مفهوم لا إله إلا الله، قد وقفوا عند نقطتين اثنتين، لا يتجاوزونهما في كل ما يخرجونه من "العمل" من مقتضى الإيمان: الصلاة والتحاكم إلى شريعة الله، وإن كانوا – نظريًا – يقولون: إن العمل كله

خارج من مقتضى الإيمان، إلا أنه حين يتكلمون في الفقه – وكثير منهم كانوا فقهاء – يعرفون جيدًا أن هناك أعمالاً لا بد من أن يحافظ عليها الإنسان لكي تظل له صفة الإسلام في المجتمع المسلم، أهمها الصلاة والتحاكم إلى شريعة الله.

أما المرجئة المحدثون فلم يقفوا عند حد..

لقد ولدوا في مجتمع لا يحكم بشريعة الله.. وفي مجتمع لا تؤدى فيه الصلاة (ولا غيرها من العبادات)، ثم تناولوا الجرعة المسمومة من الفكر الإرجائي، فمدوا فكرهم حتى شملوا به كل شيء من مقتضيات لا إله إلا الله، فقالوا: من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن، ولو لم يعمل عملاً واحدًا من أعمال الإسلام! فتجاوزوا الحاجزيْن الأخيرين اللذين كان المرجئون القدامى قد وقفوا عندهما: حاجز الصلاة وحاجز الشريعة.. فوصفوا المجتمعات التي لا تحكم بما أنزل الله بأنها مجتمعات إسلامية، ووصفوا الناس – كل الناس – بأنهم مسلمون، ما داموا يقولون بأفواههم لا إله إلا الله محمد رسول الله!

❖❖❖

الشرك أنواع.. يتحدث الخطباء والوعاظ عن بعضها – الذي لا يغضب ذوي السلطان – ويهملون الحديث عن بعضها الآخر!

فالتوجه لغير الله بشيء من ألوان العبادة كالدعاء أو الاستعانة أو الاستغاثة أو النذر أو الذبح.. شرك لا شك فيه، وما أكثر ما يتكلم الخطباء في هذا اللون من الشرك!

والظن بأن مع الله من يرزق أو يضر أو ينفع.. شرك لا شك فيه.. وما أكثر ما يتكلم فيه الخطباء!

والتشريع (أي التحليل والتحريم) بغير ما أنزل الله، والرضى بذلك التشريع، شرك لا شك فيه، ولكن الناس في قرنهم الأخير هذا قد جَهِلُوا – أو جُهِّلُوا – هذه الحقيقة الخطيرة، فلم يعودوا يفرقون بين المعصية والشرك، وصاروا ينظرون إلى هذا اللون من الشرك على أنه معصية مغفورة.. إن لم ينظروا إليه على أنه "ضرورة" مباحة لا إثم فيها، بل إن لم يكن في حسهم – من وراء ذلك – أنها تقدم وتحضر وانعتاق من الأغلال!!

❖❖❖

من مصائبنا التي ابتلينا بها في قرننا الأخير هذا أننا نحدّث الناس عن نواقض الوضوء وندرسها للطلاب في معاهدنا الدينية مئات المرات وفي مئات الصفحات.. و لا نحدثهم عن نواقض لا إله إلا الله! فإن حدثناهم فعن شرك الاعتقاد وشرك العبادة وحدهما دون شرك الاتباع، على أساسٍ خاطئٍ من أساسه، هو أن شرك الاتباع هو من "كفر العمل" الذي لا يخرج من الملة!!

❖❖❖

دخل عدي بن حاتم على رسول الله ﷺ وهو يتلو ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ فقال عدي: يا رسول الله ما عبدوهم! فقال رسول الله ﷺ: (**ألم يحلوا لهم الحرام ويحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم؟**) قال: بلى! قال: (**فذلك عبادتهم إياهم!**) هكذا يقول الله سبحانه وتعالى، وهكذا يقول رسوله ﷺ ثم هم يقولون هذا من كفر العمل، وكفر العمل لا يخرج من الملة!!

❖❖❖

المنافقين لم يكونوا يجادلون في قضية التوحيد، ولم يكونوا يجادلون كذلك في أمر العبادات (وإن أدوها في فتور وكسل) ولكنهم كانوا يَزْوَرُّون ويعرضون عن الأحكام التي تضبط تصرفات المؤمن في حياته الدنيا، فيميلون عنها إلى حكم الطاغوت

(وهو كل حكم غير حكم الله) لذلك ركزت الآيات القرآنية في المدينة – بمناسبة الحديث عن المنافقين – على قضية الحكم بما أنزل الله، لأنها هي القضية التي كانت مثارة يومئذ، ونزل قول الله الحاسم:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المَائِدَةِ: ٤٤].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المَائِدَةِ: ٤٥].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المَائِدَةِ: ٤٧].

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المَائِدَةِ: ٥٠].

❖❖❖

لقد أفرغت لا إله إلا الله من محتواها كله، ومقتضاها كله، وأصبحت كلمة تطلق في الهواء، ويتعلق بها ذلك "الغثاء" الذي تحدث عنه رسول الله ﷺ فيجرفه السيل، لا يملك نفسه منه.. لأنه بلا جذور!

❖❖❖

لقد أسهم الاستبداد السياسي في إفراغ لا إله إلا الله من محتواها في الجانب ذاته، حين أصبح الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يغضب المستبدين من ذوي السلطان، فيفتكون "بالمعارضين" الذين يعترضون على انحرافاتهم وتجاوزاتهم، فينحسر الناس إلى ذوات أنفسهم ويتحول "الدين" إلى ممارسة فردية، تركز على الجانب العبادي وحده، وينحسر عن صورته الجماعية، أي عن جانبه السياسي بصفة خاصة.. وينفصل ما بين "الدين" و "السياسة" وتصبح السياسة لا علاقه لها بلا إله إلا الله!

ثم يجيء الفكر الإرجائي فيغطي هذا الانحسار كله.. ويقول للناس: إن الإيمان هو التصديق والإقرار!

❖❖❖

الناس الذين يعيشون اليوم في الأرض الإسلامية هم خليط لا يجمعه حكم واحد، فمنهم مسلمون بلا شبهة – بحسب الظاهر من أحوالهم، وحسابهم على الله في الآخرة – لأنهم يقولون لا إله إلا الله، ويؤدون العبادات، وينكرون حكم الجاهلية، ويرغبون في تحكيم شريعة الله، ويتحاكمون إليها فيما يقدرون عليه من أمورهم، ومنهم كفار بلا شبهة – بحسب الظاهر من أحوالهم، وحسابهم على الله في الآخرة – لأنهم – حتى وإن قالوا لا إله إلا الله – ينكرون أن تكون شريعة الله واجبة التحكيم، ويقولون في ذلك مقالات شتى، فمنهم من يقول: ما للدين والسياسة؟! ومنهم من يقول: كيف تحكم الشريعة التي نزلت قبل أربعة عشر قرنا حياة الناس المتطورة اليوم؟ لا بد من أنظمة متطورة تحكم الحياة المتطورة، فلنأخذ الديمقراطية أو فلنأخذ الاشتراكية بديلاً من الإسلام! ومنهم من يقول: إن الدين قد استنفد أغراضه ولم يعد له مكان في الحياة اليوم! ومنهم من يقول: إن الدين رجعية وتأخر ينبغي نبذه والانسلاخ منه من أجل أن نصبح تقدميين! ومنهم من يقول: إن الدين علاقة بين العبد والرب، محلها القلب ولا علاقة له بواقع الحياة!

ومنهم كتلة متميعة غير واضحة السمات، يختلط فيها الحابل بالنابل، ولكن مظهرها العام بعيد عن مقتضيات الإسلام، وهي التي يختلف الناس في حكمهم عليها، وهي كذلك التي نقول إننا لا نهدف إلى إصدار حكم عليها، إنما نهدف إلى أن نبين للناس جميعا حقيقة لا إله إلا الله، لأننا نعتقد أن هذا البيان – فضلا عن كونه أمانة لله – فإنه هو الذي يمكن أن يقنع الناس بتغيير واقع حياتهم، فيغير الله لهم – حين يغيرون ما بأنفسهم ويستقيمون على أمر الله – فيخرجهم من الذل والهوان والضياع الذي يعيشونه اليوم في كل الأرض، ويرد لهم العزة والتمكين كما وعد الله عباده المؤمنين:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾ [النُّورِ: ٥٥].

❖❖❖

إن الذين يسمون هذه المجتمعات مجتمعات إسلامية، ويطلقون على كل من قال لا إله إلا الله أنه مسلم، مهما يكن واقع حياته، ومهما يكن هذا الواقع مناقضا لمقتضيات لا إله إلا الله، من باب التورع والتقوى.. إن هؤلاء – على كل تقواهم – يرتكبون في حق الدعوة خطيئة ضخمة دون أن يدروا ولا يقصدوا.

إن الواقع الذي تعيشه هذه المجتمعات – بكل ما يشتمل عليه من سوء – لهو أشد ما يصد الناس عن الإسلام!

إن مهمة الدعاة ليست أن يعطوا الناس شهادات مزورة بالإسلام! وليست أن يدلوهم كيف يحافظون على مظهرية الإسلام في الحياة الدنيا ولو كانوا مرفوضين عند ربهم! إنما مهمتهم أن يبينوا للناس كيف يكونون مؤمنين حقا، مقبولين عند الله في اليوم الآخر، ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشُّعَرَاءِ: ٨٨– ٨٩].

❖❖❖

إن الحد الأدنى الذي يعطى صفة الإسلام عند الله حين لا تكون شريعة الله قائمة في الأرض، قد بينها الحديث الصحيح بصورة حاسمة لا تحتمل التأويل. يقول رسول الله ﷺ: (مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ، حَبَّةُ خَرْدَلٍ).

وإن كثيرًا من الناس – بتأثير الفكر الإرجائي – صارت تحسب أنه يكفي في المجاهدة بالقلب – أو الإنكار بالقلب – أن يقول الإنسان بلسانه: اللهم إن هذا منكرًا لا يرضيك! أو أن يعتقد في قرارة قلبه أن هذا منكر لا يرضي الله، ثم يكون سلوكه مع هذا المنكر بعد ذلك هو نفس سلوك الراضي به، المقبل عليه!

ذلك أن الفكر الإرجائي كما فعل بالإيمان، فجعله مجرد التصديق والإقرار، وجرّده من العمل، فكذلك فعل بالإنكار بالقلب فجعله أمرا مستسرا في داخل القلب ليس له واقع سلوكي يعرف به.

❖❖❖

هناك مظلة جاهلية تظلل الناس في واقعهم المعاصر.. هي الحكم بغير ما أنزل الله ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المَائِدَةِ: ٥٠].

والناس جميعا واقفون تحت هذه المظلة، تشملهم بظلها الكئيب الناشز عن أمر الله، ولكنهم في ميزان الله فريقان مختلفان: فمن رضي بالمظلة الجاهلية فهو منها، ومن أنكرها وكرهها وجاهدها فهو المقبول عند الله، بحسب درجته من المجاهدة، ودرجته من الإنكار، هذا هو الميزان الرباني الذي لا يملك أحد تغييره بحسب هواه.

❖❖❖

إن لا إله إلا الله التي ندعو إليها هي التي أنزلها الله في كتابه المنزل، وعلمها رسول الله ﷺ لأصحابه، ومارسها السلف الصالح– رضوان الله عليهم– .

إنها لا إله إلا الله ذات المقتضيات:

توحيد الاعتقاد .. توحيد العبادة.. توحيد الحاكمية.. التخلق بأخلاق لا إله إلا الله.. القيام بالتكاليف الربانية التي تشمل طلب العلم، وعمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني، وإعداد العدة لأعداء الله، ونشر الدعوة في الأرض، والجهاد في سبيل الله.

❖❖❖

حين نقول للناس إن طريق الخلاص هو تصحيح المفاهيم الإسلامية – وبصفة خاصة مفهوم لا إله إلا الله – يفتح كثير من الناس أفواههم من العجب.. وينكر كثيرون!

فعند بعض القوم أن طريق الخلاص هو محاربة الفقر والجهل والمرض، هو البناء الاقتصادي المتين، هو إيجاد الطعام لكل جائع، والعمل لكل عامل، والتعليم لكل متعلم..

وعند بعضهم هو إزالة التخلف الحضاري والمادي والعلمي والتكنولوجي..

وعند بعضهم هو إصلاح الأخلاق المنهارة: الرشوة المتفشية، والكذب والنفاق، والغش والإهمال، والجبن والتقاعس، وموت الضمير وعدم المبالاة..

وعند بعضهم هو جمع الكلمة وإزالة الفرقة وتوحيد الصف وإزالة البغضاء وتغليب المصلحة العامة.. وعند بعضهم.. وعند بعضهم.. وعند بعضهم ..

ونحن نقول: نعم لهذا كله! كله إصلاح! وكله مطلوب! ولكن كيف السبيل؟!

لقد جربنا خلال قرن كامل من الزمان أن نصلح هذا كله، وفتحنا مدارس وفتحنا معاهد وفتحنا جامعات، وأنشأنا طرقًا وأنشأنا مصانع، وملأنا الطرق بالسيارات، وملأنا البيوت بالثلاجات والسخانات والتليفزيونات.. وصنعنا من ذلك كله قدرًا غير قليل ..

ثم..؟!

زادت مشاكلنا كلها حدةً، وزادت أزماتنا كلها تعقيدًا، وزدنا ضعفًا وهوانًا على الناس، ولم تعد "الأمم" وحدها هي التي تتداعى علينا كما يتداعى الأكلة إلى قصعتهم.. وإنما صار شذاذ الآفاق، الذين كتب الله عليهم الذلة والمسكنة أول المتداعين إلى القصعة، وأول الناهشين في الأموال والأعراض والدماء ..

ونحن نقول: إن طريق الخلاص هو تصحيح المفاهيم الإسلامية بدءً بمفهوم لا إله إلا الله، وإن فغر الناس أفواههم من العجب.. وإن أنكر المنكرون!

❖❖❖

نشكو اليوم – ونحن نحاول "الإصلاح" – من فقدان روح "الإحساس بالواجب" عند الناس ونشكو من الارتجالية والفوضى في أعمالنا كلها، مما يضيع علينا أموالا كثيرة وأوقاتا عزيزة وفرصا نادرة، ويؤدي إلى بوار كثير من مشروعاتنا..

ونشكو من النفاق والكذب والغش والخديعة وقلة الأمانة..

ونشكو من الكسل والتواكل وانعدام الجدية في أخذ الأمور..

ونشكو من فقدان الروح العلمية في تناول مشكلاتنا، لأننا نفتقد النظرة الموضوعية – التي لا تتدخل فيها الأهواء – ونكره التخطيط والتنظيم..

ونشكو من فقدان "الروح الجماعية" وغلبة الروح الفردية الأنانية الضيقة البغيضة..

ونشكو من خيانة "زعمائنا"، وعمالتهم لأعدائنا، وتسخيرهم أوطانهم لمصلحة أعدائهم لقاء شهوة الحكم والسلطان..

ونشكو .. ونشكو .. ونشكو ومر ما يزيد على قرن من الزمان ونحن نوهم أنفسنا – خادعين أو مخدوعين – أننا نسعى إلى الإصلاح ، ونبحث عن طريق الخلاص ..

والحصاد المر هو نهاية الطريق!

طريق الخلاص هو تصحيح المفاهيم الإسلامية كلها بدءا بمفهوم لا إله إلا الله ..

طريق شاق نعم .. مجهد نعم .. محفوف بالمخاطر نعم .. ولكنه طريق الأحرار ..

أما طريق العبيد .. فهو طريق العبيد!



مَفهُوم العبَادة

من أخطر الانحرافات التي وقعت فيها الأجيال المتأخرة من المسلمين – بعد انحرافهم في فهم لا إله إلا الله – انحرافهم في تصور مفهوم العبادة.

وحين يعقد الإنسان مقارنة بين المفهوم الشامل الواسع العميق الذي كانت الأجيال الأولى من المسلمين تفهمه من أمر العبادة، والمفهوم الهزيل الضئيل الذي تفهمه الأجيال المعاصرة، لا يستغرب كيف هوت هذه الأمة من عليائها لتصبح في هذا الحضيض الذي تعيشه اليوم، وكيف هبطت من مقام القيادة والريادة للبشرية كلها، لتصبح ذلك الغثاء الذي تتداعى عليه الأمم تنهشه من كل جانب.

❖❖❖

كان المفهوم الصحيح للعبادة في حس الأجيال الأولى أن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله، كما فهموا من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَاتِ: ٥٦].

كم تستغرق الشعائر من اليوم والليلة؟ وكم تستغرق من عمر الإنسان؟

وبقية العمر؟ وبقية الطاقة؟ وبقية الوقت؟ أين تنفق وأين تذهب تنفق في العبادة أم في غير العبادة؟ وإن كانت في غير العبادة فكيف تتحقق غاية الوجود الإنساني التي حصرتها الآية حصرًا كاملاً في عبادة الله؟ وكيف يجوز للإنسان – من عند نفسه – أن يجعل لوجوده – أو لجزء من وجوده – غاية لم يأذن بها الله؟!

❖❖❖

﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٩١].

أي في جميع أحوالهم.. ولم يكن ذكرهم مجرد الذكر باللسان، ولا مجرد الذكر بالقلب، إنما كان إلى جانب هذا وذاك عملا يؤدى بروح العبادة لله.

فأما الذكر على طريقة الطقطقة بالمسابح فلم يؤْثَر عنهم – رضوان الله عليهم– .

وأما الذكر على طريقة الخلوة التعبدية التي يغيب فيها الإنسان عن الواقع المحسوس، وينقطع عن الدنيا من أجل أن يخلو إلى ربه، فينقطع بذلك عن العمل في واقع الأرض، فهذا أيضا لم يؤثر عن ذلك الجيل الفريد..

❖❖❖

وكانوا يذكرون الله فيسألون أنفسهم: ماذا يريد الله منا في هذه اللحظة؟ أي: ما التكليف المفروض علينا في هذه اللحظة؟ فإذا كان التكليف: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النِّسَاءِ: ٧٤] كان ذكر الله مؤديًا إلى القيام بالجهاد في سبيل الله.

وإذا كان التكليف: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النِّسَاءِ: ١٩] كان ذكر الله مؤديًا إلى القيام بهذا الواجب الذي أمر به الله تجاه الزوجات.

وإذا كان التكليف: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التَّحْرِيمِ: ٦] كان ذكر الله مؤديًا إلى القيام بتربية الأهل والأولاد على النهج الرباني الذي يضبط سلوكهم بالضوابط الربانية، ويوجه مشاعرهم وأفكارهم وأعمالهم إلى ما يرضى الله.

وإذا كان التكليف: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [المُلْكِ: ١٥] كان مقتضى ذكر الله هو المشي في مناكب الأرض وابتغاء رزق الله في حدود الحلال الذي أحله الله، لأنه إليه النشور، فيحاسب الناس على ما اجترحوا في الحياة الدنيا.

ومن مثل هذه التوجيهات المبثوثة في كتاب الله، ومن تعليم الرسول ﷺ فهم المؤمنون من الجيل الأول والأجيال التالية له، أن العبادة المطلوبة لا تنحصر في الشعائر التعبدية، وأنها أوسع من ذلك وأشمل..

وفهموا أن الصلاة والنسك – أي الشعائر – إنما هي المنطلق الذي ينطلق منه الإنسان ليقوم ببقية العبادة، التي تشمل الحياة كلها، بل الموت كذلك!

والموت في حد ذاته لا يمكن أن يكون عبادة بطبيعة الحال لأنه لا خيار للإنسان فيه، ولكن المقصود في قوله تعالى: ﴿وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعَام: ١٦٢– ١٦٣] هو أن يموت الإنسان غير مشرك بالله، وذلك هو الحد الأدنى الذي يكون به الإنسان – في موته – عابداً لله، أما الحد الأعلى فهو أن يكون موته استشهاداً في سبيل الله.. وتلك قمة العبادة..

وبهذا النهج وحده.. أي بأداء تلك العبادة الشاملة المتكاملة، التي تشمل الحياة والموت، تتحقق غاية الوجود الإنساني، ويكون الإنسان قد قام – قدر جهده – بالعبادة المطلوبة تجاه الله..

ولقد يبدو هذا المعنى غريبا في حس "المسلم المعاصر" أو معتسفا، بعد إذا تعودنا منذ أجيال أن ننظر إلى الشعائر التعبدية على أنها هي كل العبادة المطلوبة من المسلم، وأنه إذا أداها فقد أدى كل ما عليه من العبادة، ولم يعد لأحد أن يطالبه بالمزيد!

❖❖❖

حين يوجد إدراك صحيح للعبادة، وأنها تبدأ بالإقرار بالعبودية لله وحده دون شريك، قبل الصلاة والصيام والزكاة والحج، لا يمكن أن توجد الظاهرة القائمة اليوم في حياة "المسلم المعاصر" وهي وجود ملايين من البشر يعتقدون أن الإنسان إذا أدى الشعائر التعبدية فهو مؤمن كامل الإيمان، ولو تحاكم راضيا إلى شريعة غير شريعة الله، وأن قضية التحاكم منفصلة تماما عن العبادة كما هي منفصلة تماما عن الإيمان.. لأن رسول الله ﷺ قال **(إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان)**!

فذكر في الحديث اعتياد المساجد ولم يذكر التحاكم إلى شريعة الله!!

وأقوال رسول الله ﷺ الثابتة حق كلها.. ولكن الاجتزاء بحديث معين من أحاديث الإيمان منقطعا عن بقية الأحاديث التي تحدد حقيقة الإيمان أو تحدد نواقضه، لا يمكن أن يؤدي إلى إدراك صحيح.. وإلا فهل يعقل بداهة أن يطلب رسول الله ﷺ الشهادة لرجل بالإيمان (إن صح الحديث) لمجرد أنه يعتاد المساجد، إذا كان الرجل واقعًا في شرك صريح ينقض لا إله إلا الله من أساسها، وينقض أصل الإيمان؟! أليس الإقرار بلا إله إلا الله – ومن مقتضياتها التحاكم إلى شريعة الله – شرطًا لازمًا للإيمان قبل اعتياد المساجد وإقامة الصلاة وإن لم يذكر ذلك في الحديث الآنف الذكر، لأنه من المعلوم من الدين بالضرورة، الذي بينته أحاديث أخرى للرسول ﷺ كما بينته الآيات المحكمات من كتاب الله؟



لقد كان المرتدون الذين قاتلهم أبو بكر ﷺ يقيمون الصلاة ويعتادون المساجد، ومع ذلك لم يشهد لهم أحد بالإيمان! بل قوتلوا وحوربوا لأنهم أعرضوا عن حكم واحد من أحكام الله، مع إقرارهم – وتنفيذهم – لبقية الأحكام.. فكيف بمن يعرضون عن حكم الله كله، ويُقْبِلُون راضين على حكم غير حكم الله؟!

❖❖❖

يقول تعالى جل شأنه:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النِّسَاءِ: ٥٩].

فتحدد الآية الكريمة مصدر السلطة في المجتمع المسلم: الله ورسوله، وتأمر بطاعة الله وطاعة الرسول طاعة مطلقة في كل أمر أو نهي جاء في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ ثم تأمر الآية بطاعة أولي الأمر لا قائمة بذاتها، ولا مطلقة كطاعة الله ورسوله، ولكن معطوفة على طاعة الله والرسول، أي فيما أمروا به غير مخالف لما جاء من عند الله والرسول، إذ أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق: (**إنما الطاعة في المعروف**).

ثم تبين الآية المرجع الذي يرجع إليه المسلمون في أي نزاع يعرض لهم: الله والرسول، ولا أحد غير هذا المرجع..

❖❖❖

حين خرج العمل السياسي من دائرة العبادة تخلخلت أول عروة من عرى الإسلام – عروة الحكم – فكانت أول العرى نقضا كما قال الصادق الصدوق ﷺ: (**لتنقضن عرى هذا الدين عروة عروة، فأولها نقضًا الحكم، وآخرها نقضًا الصلاة**).

❖❖❖

لننظر في بعض النماذج من سلوك الصحابة – رضوان الله عليهم– لندرك هذه الحقيقة العميقة الدقيقة، وهي شمول العبادة في حسهم لكل عمل وكل فكر وكل شعور، وكل لحظة من لحظات العمر، وعدم اقتصارها على لحظات معينة هي التي تؤدى فيها الشعائر التعبدية:

وخذ سلمان الفارسي حين قام عمر ﷺ على المنبر يقول: أيها الناس، اسمعوا وأطيعوا، فقال له سلمان: لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة! فقال عمر – ولم يغضب – ولمه؟ قال: حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذي ائتزرت به! فلم يغضب عمر، ونادى ابنه عبد الله بن عمر فقال له: نشدتك الله! هذا البرد الذي ائتزرت به أهو بردك؟ قال: نعم! قال سلمان: الآن مر! نسمع ونطع!

هل كان أيهما يؤدي شعيرة من الشعائر؟ إنما كان يؤدي كل منهما عبادة! سلمان يتعبد الله بالرقابة على أعمال الحاكم للتأكد من جريان العدل الرباني مجراه، وعمر – بروح العبادة في قمتها – لا يغضب من مساءلة الرعية له على متر زائد من القماش!

❖❖❖

حين يكون العمل عبادة فلن يدخله الغش، ولا الخيانة، ولا الكذب، ولا الخديعة، ولا الافتئات على حقوق الناس بالجور والظلم، ولا ارتكاب المحرمات من أجل الكسب أو التسلط أو المتاع..

وحين يكون الترويح عبادة فلا يمكن أن يسفل، وأن يتفه، وأن يسفّ، ولا أن يهبط بإنسانية الإنسان كما هو حادث في الجاهلية المعاصرة في ألوان "اللهو" المبذول في كل مكان، والذي يزين كل فاحشة سوية أو شاذة للناس.

❖❖❖

إن الذي قامت به الأمة الإسلامية الأولى لم يكن مجرد التوسع والفتح، والغلبة والسلطان، ولا مجرد إقامة حركة علمية أو حركة حضارية أو عمارة مادية للأرض.. فهذا كله من العطاء الرباني الذي يمنحه الله للكفار وللمؤمنين سواء: ﴿**كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا**﴾ [الإِسْرَاءِ: ٢٠].

وقد كان لكثير من الجاهليات التاريخية نصيب منه..

إنما الذي صنعته الأمة الإسلامية هو إقامة هذه العمارة وهذه الحضارة وهذه القوة الغالبة الساحقة على أساس من القيم والمثل لم تتحقق في صورة واقع عملي سلوكي إلا في تاريخ هذه الأمة الفريدة في التاريخ.

❖❖❖

إن الحصيلة النهائية للحضارة المادية المعاصرة بعيدة كل البعد عن أن تكون صورة مشرقة "للإنسان" أو صورة مشرّفة له، رغم كل الجوانب المضيئة فيها، بسبب ما تحمله من جور سياسي واقتصادي واجتماعي، واستعمار، وانتهاك للحرمات، وقذارة حسية ومعنوية، وتحلل أخلاقي، وانطماس روحي، وانتكاس نفسي، وهبوط بالإنسان من مكانه اللائق الذي خلقه الله له، وكرمه به، لكي يصبح في النهاية عبدًا ذليلاً لكل شيء.. إلا الله!

❖❖❖

لقد جاءت أحاديث الرسول ﷺ تربط الأخلاق ربطًا وثيقًا بالإيمان، وجودًا وعدمًا:

(من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت).

(والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

(الإيمان بضع وسبعون (أو بضع وستون) شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبةٌ من الإيمان).

سئلت عائشة – رضي الله عنها– عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: **كان خلقه القرآن.**

ويتبين من هذا كله أن الأخلاق جزء أصيل من هذا الدين، ينبع نبعًا مباشرًا من الإيمان بالله، ويمارسها المؤمن عبادةً لله، فلا هي أمور هامشية في حياة المؤمن، ولا هي – في حسه – خارجة عن نطاق العبادة التي يتقدم بها إلى الله.

❖❖❖

لقد أدى انحسار مفهوم العبادة، وانحصارها في الشعائر، إلى إخراج الأخلاق من العبادة تدريجيًا..

فماذا كانت النتيجة؟

كانت أنه أصبح أمرًا مألوفًا في العالم الإسلامي أن تجد الرجل يصلي في المسجد – ويعتاد المساجد – ثم يكذب! بينما سئل رسول الله ﷺ: **أيكون المؤمن جبانًا قال: نعم، ثم سئل: أيكون المؤمن كذابًا قال: لا!**

وأصبح أمرًا مألوفًا أن يخرج الرجل من الصلاة بالمسجد ثم يغش المسلمين، بينما يقول رسول الله ﷺ: **(من غشنا فليس منا).**

وأصبح مألوفًا أن يخرج الرجل من الصلاة وقد خان الأمانة التي أؤتمن عليها، أو أخلف الوعد الذي أعطاه، بينما جعل رسول الله ﷺ ذلك من علامات النفاق!



ليس الغريب أن يتفلت الناس من قيود الأخلاق، فهي قيود ثقيلة إلا على الذين هدى الله!

ولكن الغريب أن هذا التفلت – بكل آثاره المدمرة في حياة الأمة– غير موصول في حس الناس بأمر العبادة! فالعبادة هي الشعائر.. ومن أدى الشعائر فقد أدى العبادة المطلوبة.. وأما هذه السقطات الأخلاقية فهي معيبة نعم، والوعاظ يتكلمون عنها في كل خطبة، نعم، ولكنها في دائرة أخرى غير دائرة العبادة..! فهذه "مقفلة" على الشعائر فحسب!

❖❖❖

إن كثيرًا من الناس في الغرب يستمعون إلى الدعاة المسلمين يحدثونهم عن الإسلام، ثم يقولون لهم بلسان الحال أو بلسان المقال: إذا كان الإسلام بهذه الصورة الجميلة التي تعرضونها، فلماذا أنتم هكذا؟! لماذا أنتم كذابون غشاشون مخادعون مخلفون للوعد غير مستقيمين في تعاملكم.. فضلاً عن كونكم – فيما بينكم وبين أنفسكم – متعادين متباغضين لا تجتمعون على شيء؟! وهكذا يقف واقع المسلمين في وجه الدعوة إلى الإسلام، يصد الملايين الحائرة عن طريق الخلاص!

ومع ذلك يمر كثير من الناس على هذا الأمر الخطير مرورًا عابرًا، لا يثير عندهم أكثر من أسفٍ عابر، ثم يهزون أكتافهم ويمضون!

❖❖❖

الكتاب والسنة أعطيا لكل شعيرةٍ من الشعائر التعبدية بعدًا نفسيًا وسلوكيًا لا يقتصر على أدائها.. بل الأصح أن نقول إنه يبدأ بأدائها.. ثم يمتد ليشمل مساحة واسعة من حياة الإنسان!

يقول الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿**وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ**﴾ [العَنكَبُوتِ: ٥٩].

ويقول – عليه الصلاة والسلام– : (**من لم يدع قول الزور والعمل به فلا حاجة لله بتركه طعامه وشرابه**) ويقول: (**رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش**).

وقال تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾[التَّوْبَةِ: ١٠٣].

ويقول ﷺ: (**من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق، رجع كما ولدته أمه**).

وخلاصة هذه الآيات والأحاديث أن الشعائر التعبدية ذات مقتضيات، وأنها لا تنتهي بذات نفسها، أي بمجرد أدائها، إنما تصحبها وتتبعها مقتضيات، هي التي تعطيها معناها الحقيقي، ومهمتها الحقيقية في حياة الأمة المسلمة.

❖❖❖

حين وصل الفساد في مفهوم العبادة إلى الحد الذي بيناه، من حصرها في الشعائر، ثم حصر الشعائر في مجرد الأداء دون تحقيق ما يتعلق بها من المقتضيات.. فقد كان هذا فسادًا ضخمًا ولا شك، ومع ذلك فلم يكن الأمر ليتوقف عند هذا الحد، فمن طبيعة الانحسار أن يزداد ما دام الناس لا يحسون أنه انحسار، وأنهم مقصرون في أداء الواجب، ومنحرفون عن الطريق الصحيح..

❖❖❖

يقول علماؤنا: سقط الواجب بالأداء، أيًّا كانت صورة الأداء.. حتى وإن لم يكن له ثواب!

أو – بلغة أخرى – سددت الخانة وانتهى الأمر!

ويقول علماؤنا: ما دام قد قام بالواجب على أي نحو فهو مؤمن لا يخلد في النار.. بل قال المرجئة: يدخل الجنة ولو لم يعمل عملاً واحداً من أعمال الإسلام!

ثم .. إذا بنا أمام أمة لا تبالي – إلا من رحم ربك – أن تدخل النار ما دامت لا تخلّد فيها .. وحسبها النجاة من الخلود في النار!

وما يقول أحد إن البقاء في النار خمسين ألف سنة ثم الخروج منها برحمةٍ من الله، مثل الخلود فيها بلا انقطاع ..

ولكن الأمة التي لا تبالي أن تدخل النار ما دامت لا تخلّد فيها .. لا تبالي أن ترسب في الامتحان على أمل أن تلتقطها (لجان الرأفة) .. لا جرم تكون غثاء كغثاء السيل، تتداعى عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، لا يقام لها وزن ولا اعتبار.

❖❖❖

فرق شاسع بين مفهوم العبادة كما نزل من عند الله، وعلمه رسول الله ﷺ ووعاه الجيل الأول ومارسه، وبين المفهوم الشائه الهزيل الضامر الذي فهمته الأجيال المتأخرة .. مارسته أم لم تمارسه!

المفهوم الأول هو الذي أخرج ﴿**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١١٠].

والمفهوم الأخير هو الذي أخرج (**غثاء السيل**)!!!

❖❖❖

يوم كانت (**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**) عبادة، وكان ولي الأمر يستشعر أنه راعٍ ومسئول عن رعيته، لم يكن للفقراء في المجتمع الإسلامي قضية، لأن العلاج الرباني لمشكلة الفقر كان يطبق في المجتمع الإسلامي عبادة لله.

ويوم كانت ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ**﴾ [النِّسَاءِ: ١٩] عبادة، لم تكن للمرأة المسلمة قضية! لأن كل الحقوق والضمانات التي أمر الله لها بها كانت تؤدى إليها، طاعةً لله، وعبادةً لله!

ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ..

❖❖❖

تصحيح المفاهيم أولاً، ثم إقامة بناءٍ جديد على المفاهيم الصحيحة للإسلام ..

ولن يكون هناك سحر يمحو الضعف والتخلف في لحظات ويبد لهما تقدما وقوة ..

إنما هناك سنن ربانية تقوم عليها حياة الناس في الأرض ..

وحين نعمل حسب السنن الصحيحة يأتينا الحل الصحيح ..

وليس من السنن الصحيحة أن نفسد ديننا ثم نقول: يا رب! يا رب!

❖❖❖

مَفهُوم القضَاءِ وَالقَدَر

الإيمان بالقضاء والقدر جزء رئيسي من عقيدة المسلم، كما بينها حديث جبريل عليه السلام: **"الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره"**

وهو من مميزات هذه الأمة في تاريخها الطويل.

ولكنه كان في حس الأجيال الأولى من هذه الأمة قوة دافعة بناءة محركة، بقدر ما صار في حس الأجيال المتأخرة منها قوة سلبية هدامة مخذّلة، حين انحرف مفهوم القضاء والقدر في حسها عن صورته الصحيحة التي عاشت بها الأجيال الأولى وبنت وعمرت وتحركت.

والصورة الظاهرة واحدة في الحالين، ولكن شتان ما بين هذه وتلك في حقيقة الأمر.. كما حدث في كل شيء في حياة هذه الأمة!

كان المسلم الأول يؤمن بأن كل ما يحدث له أو يحدث في الكون هو بقضاء الله وقدره، وأن شيئا لن يغيّر ما قدره الله منذ الأزل في اللوح المحفوظ.

ثم كانت نتيجة إيمانه بذلك أن يقول لنفسه، أإذا ذهبت إلى ميدان القتال أُقْتَلُ بسبب ذهابي إلى هناك؟ أم إنه يجري عليّ ما قدره الله لي، فإن كان كتب لي الشهادة هناك فسأقتل – بقضاء من الله وقدر – وإن كان كتب لي العودة فسأعود؟ ثم إنني إن كان الله قد كتب عليّ الموت فسأموت ولو كنت في مكاني هذا ولم أذهب إلى القتال.. إذن فما الذي يقعدني عن القتال؟ خوف الموت وهو مقدر على أي حال؟ أم خوف الأذى ولن ينالني منه إلا ما قدره الله في كل حال؟ كلا فلنذهب إلى أداء فريضة ربنا، ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون، ثم يذهب إلى القتال بنفس شجاعة فيستبسل، فيُمضي الله به قدره في الأرض، وينصر به هذا الدين ويمكن له، ثم يكون من أمره ما قدره الله له، إما الشهادة وإما النصر.

❖❖❖

كان في حس المسلم الأول أن إيمانه بالقضاء والقدر لا ينفي مسئوليته عن عمله حين يرتكب خطأ يعرّضه للجزاء.

وفي وقعة أحد كان الدرس هائلاً وعميقًا في نفوس المؤمنين.

لقد خالف الرماة أمر قائدهم ورسولهم ﷺ إذ أمرهم ألا يبرحوا أماكنهم ولو رأوا المسلمين تتخطفهم الطير. ولكنهم حين رأوا النصر، وظنوا أن المعركة قد انتهت إلى غايتها ، شغلتهم الغنائم عن أمر رسول الله ﷺ، فغادروا أماكنهم ونزلوا مخافة ألا يحسب لهم نصيب من الغنائم! ومن هنا كرّ المشركون بخيلهم على جيش المسلمين مطمئنين إلى انصراف القوة الضاربة من فوق جبل الرماة، وكانت الهزيمة والاضطراب العنيف في صفوف الجيش، وإصابة رسول الله ﷺ، وما أشاع الكفار من قتله – عليه الصلاة والسلام– ، وأثر ذلك في تفريق وحدة الجيش..

ونزل القرآن بعتاب شديد للمؤمنين على ما فعلوا، ونزل كذلك بالشرح والبيان، وكان من هذا الشرح تلك الآيات:

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٦٥– ١٦٧].

إنه من عند أنفسكم.. وفي ذات الوقت هو بإذن الله.
المسئولية عن الخطأ قائمة، والإيمان بأنه من قضاء الله وقدره قائم.. لا يتعارضان.
ولقد كان هذا من أعظم ما تعلمته هذه الأمة ومن أعظم ما تميزت به: إزالة التعارض بين إيمان الإنسان بمسئوليته عن عمله، وإيمانه بقضاء الله وقدره، وإقرار الأمرين معا في القلب البشري ليتوازن بينهما، ويتوازن بهما في مسيرته في هذه الأرض، فلا يزايله الإحساس الدائم بقدر الله والتطلع إليه في الكبيرة والصغيرة، ولا يزايله كذلك مراقبته لأعمال نفسه ووزنها بميزان الخطأ والصواب.
كيف تحول هذا التوازن البديع إلى تنصل من كل مسئولية بدعوى الإيمان بقضاء الله وقدره؟؟؟

❖❖❖

كذلك كان في حس الأمة الأولى أن إيمانها بالقضاء والقدر لا يتعارض مع اتخاذ الأسباب.
﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [مُحَمَّدٍ:٧].
فلا بد من اتخاذ الأسباب للنصر، وإن كان النصر قدرًا مقدورًا من عند الله.

❖❖❖

إن الله لم يأمر الناس أن يستسلموا لقدر الله بمعنى عدم العمل على تغيير الواقع السيئ الذي هم فيه، إنما أمرهم بالتسليم (أو الاستسلام) لقدر الله بمعنى الرضى بما وقع بالفعل على أنه قدر محتوم لم يكن يمكن تلافيه، أما القعود عنده، وعدم تغييره أو محاولة تغييره فأمر آخر لم يأمر الله به ولا حث عليه، ولا علاقة له بالرضى بما وقع على أنه قدر محتوم من عند الله.

❖❖❖

في الابتلاء الذي أصاب المؤمنين على يد قريش – وهو سنة من سنن الله لم تتخلف مع أي جماعة من المؤمنين تواجه الجاهلية في بدء الدعوة قبل التمكين – كان الابتلاء واقعًا بقدر من الله، ولحكمة كذلك يعلمها الله ويريدها:
﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العَنكَبُوتِ: ٣].
فهل منع ذلك رسول الله ﷺ والمؤمنين من محاولة التغيير؟ بطلب الجوار من بعض المشركين حينا، وبالهجرة إلى الحبشة حينا، حتى جاء الإذن بالهجرة إلى المدينة آخر الأمر؟!

❖❖❖

لم يتعارض في حس الأمة الأولى واجب التسليم لقدر الله مع محاولة التغيير تطلعًا إلى قدر جديد من عند الله، وكان هذا من روائع ما تربّتْ عليه الأمة لتتوازن به بين سلبية الاستسلام التي تحطم الإرادة وبين الرغبة الجامحة التي لا تعرف التسليم.
كيف تحول هذا التوازن إلى قعود عن التغيير بدعوى الاستسلام لقدر الله؟!

❖❖❖

إن عقيدة القضاء والقدر في صورتها الصحيحة تمثل نقط توازن هائلة ورائعة في حس الإنسان المسلم الذي يسيّر حياته بمقتضى هذه العقيدة، فضلا عن ذلك فإنها عقيدة ذات مقتضى ضخم جدا في حياة الإنسان المؤمن..
إنها نقطة توازن بين اتجاهات شتى يتعرض لها الإنسان حين لا ينضبط سلوكه وفكره وتصوره بالمنهج الرباني الصحيح..
فشعور الإنسان بعظمة الله التي لا تحدها حدود، وهيمنته سبحانه على كل شيء، وجريان الأمر كله بمشيئته، عرضة أن ينتهي بالإنسان إلى سلبية منحسرة لا تعمل شيئا ولا تتطلع إلى إنجاز أي شيء!

وشعور الإنسان بذاتيته، ومقدرته على العمل والتصرف، ورؤيته لإنتاجه الذي ينتجه بفكره وجسمه، عرضة أن ينتهي بالإنسان إلى التأله والجحود والطغيان، إعجابًا منه بإيجابيته، وفاعليته!

ومن ناحية أخرى فإن شعور الإنسان بعظمة الله وهيمنته، وجريان الأمر كله بمشيئته، عرضة أن ينتهي بالإنسان إلى نسيان الأسباب جملة، ونسيان السنن الربانية الجارية التي أودعها الله في بنية الكون وفي حياة الإنسان، تطلعًا إلى تلك المشيئة التي لا يحدها حد ولا يقيدها قيد!

كما أن شعور الإنسان بانتظام السنن التي يجري بها الكون وتجري بها حياة الناس، عرضة أن ينتهي بالإنسان إلى نسيان قدر الله جملة أو إغفاله، والتعلق بالأسباب على أنها قوانين حتمية لا بد أن يؤدي السبب فيها حتما إلى النتيجة.

ومن ناحية ثالثة فإن شعور الإنسان بجريان الأمر كله بمشيئة الله، عمل هو أو لم يعمل، وأراد أم لم يرد، عرضة أن ينتهي بالإنسان إلى ترك العمل جملة، يأسًا من أن يؤثر عمله في مجرى الأحداث، أو ضنا بجهد لا يوصل – بذاته – إلى نتيجة!

كما أن شعور الإنسان بتأثير عمله في مجرى الأحداث، وبأن الأحداث مترتبة على مقدار ما يعمل ونوع ما يعمل، عرضة أن ينتهي بالإنسان إلى الفتنة بعمله، والظن بأنه هو الذي يصنع قدره بنفسه، ويتحكم فيه كما يشاء!

❖❖❖

إن عقيدة القضاء والقدر في صورتها الصحيحة تجعل المسلم يعمل في الأرض وقلبه متطلع إلى الله في السماء؛ إنه يتخذ الأسباب عبادة لله، وانطلاقا مع سنة الله الجارية، ويحس في الوقت ذاته أن النتيجة التي وصل إليها هي قدر قدره الله، وليست حصيلة أسبابه التي اتخذها، وأن الأسباب لا تؤدي بذاتها أداء حتميا إلى النتيجة، إنما تؤدي إلى النتيجة بقدر من الله، ولو شاء الله ألا يوصل السبب إلى النتيجة فإن الذي ينفذ بالفعل هو إرادة الله وليس حتمية الأسباب!

❖❖❖

ينظر الجاهلي الأوربي المعاصر بسذاجة إلى العقلية الإسلامية فيقول إنها عقلية غيبية لا تؤمن بقانون السببية، وهو في قولته هذه يكشف عن جهله بأمر لا يستطيع حسه الضيق أن يلم به، فالعقلية الإسلامية – الصحيحة – غيبية نعم، لأنها تؤمن بالغيب، وتؤمن بقدر الله، ولكنها في الوقت ذاته عقلية علمية أصيلة، بدليل أنها هي التي اهتدت إلى المنهج التجريبي في البحث العلمي، وأهدته إلى أوربا، وهو منهج قائم كله على الملاحظة والتجربة وعلاقة السبب بالنتيجة! ولكنها – وهي تتعامل مع سنة الله الجارية – لا تغلق قلبها عن مشيئة الله الطليقة التي لا يحدّها قيد على الإطلاق.

ومزية هذه العقلية العلمية الغيبية في آن واحد، أنها لا تفاجأ حين تجد نتيجة لا تفسرها الأسباب الظاهرة، لأنها تعلم أنها تمت بقدر من الله، ولا يصيبها ما أصاب هتلر، حين اتخذ كل الأسباب التي كان في طوق بشر أن يتخذها، فلما خاب مسعاه انتحر، ولم يطق النتيجة التي قدرها الله من وراء كل الأسباب!

❖❖❖

إن شكل عقيدة القضاء والقدر لم يتغير.. ولكن جوهرها تغير تغيرًا هائلاً بكل تأكيد.

لقد أصابه ما أصاب لا إله إلا الله وبقية العبادات.. أفرغ من محتواه الحقيقي، وأصبح صورة بلا رصيد.

❖❖❖

مَفهُوم الدّنيَا والآخرة

لم يكن في حس الأجيال الأولى من المسلمين ذلك الفاصل الحاد بين الدنيا والآخرة الذي أحسته الأجيال المتأخرة، لم يكن في حسهم أن هناك أعمالا معينة هي للدنيا وحدها منقطعة عن الآخرة، وأعمالا أخرى هي للآخرة وحدها منقطعة عن الدنيا.

❖❖❖

كان المفهوم الصحيح للعبادة هو الذي يحكم حياة الأجيال الأولى، ويحكم تصورهم:

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ ..﴾ [الأنعَامِ: ١٦٢- ١٦٣].

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَاتِ: ٥٦].

وفي هذا المفهوم لا يمكن أن تنفصل الشعائر التعبدية عن العمل، ولا الدنيا عن الآخرة، لذلك كانت الحياة في حسهم حلقة متصلة لا انفصام فيها بين جزء وجزء، الصلاة فيها والنسك، والطعام والشراب والجنس، والقتال في سبيل الله، والسعي وراء الرزق، وطلب العلم، وعمارة الأرض.. كلها عبادة، وكلها للدنيا والآخرة في آن، وكل لحظة واعية تمر بالإنسان في نهاره أو ليله، وكل عمل يقوم به - متوجها فيه إلى الله، وملتزما فيه بما أنزل الله - فهو لون من ألوان العبادة، متصل بعضها ببعض، وهو على الدوام يتنقل من عبادة إلى عبادة، تحقيقا لغاية الوجود الإنساني، التي تشمل وجوده كله، وتوجهه إلى الله.

❖❖❖

حين كانت الجاهلية تعبد آلهة شتى - حتى مع قولهم بألسنتهم إن الله هو رب الأرباب، وإنهم لا يعبدون الآلهة الأخرى إلا لتقربهم إلى الله زلفى! - كانت حياتهم شتاتًا لا يتجمع.

كانوا لا يؤمنون بالآخرة، ومن ثم فلا صلة في حسهم بين الدنيا والآخرة.

وكانت الأرباب المعبودة شتى، ومن ثم كانت العبادة مفرقة موزعة.

فالأصنام تعبد ساعة، والقبيلة تعبد ساعة، وعرف الآباء والأجداد يعبد ساعة، والهوى والشهوات تعبد ساعة، أو هي تعبد كلها جميعا ولكن بغير اتصال في الحس ولا ترابط، فالحياة تعاش ساعة بساعة بغير هدف حقيقي ولا غاية:

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجَاثِيَةِ: ٢٤].

وما دامت على هذا النحو فهي تعاش بمقتضى هوى اللحظة القائمة بغير حساب لما عداها: "اليوم خمر وغدًا أمر"!!

❖❖❖

لقد كان الشتات هو الطابع المميز لتلك الجاهلية ككل جاهلية في التاريخ، وإن اختلفت درجات التشتت ومظاهره بين جاهلية وجاهلية على مدار التاريخ!

ثم آمنت تلك الجاهلية بلا إله إلا الله فأصبحت خلقًا آخر..

تجمع الشتات المتناثر ليلتقي في وحدة شاملة..

تجمعت القبائل المتناحرة لتكوِّن "أمة" لأول مرة في تاريخها، وكان قد مضى عليها من الزمن ما لا يحصيه إلا الله، ولا تقدر على هذه الوحدة لأنها تفتقد عنصر التجميع!

وتجمعت أجناس وألوان ولغات وثقافات متباينة، فانصهرت كلها في بوتقة تلك الأمة الواحدة، على نمط غير مسبوق ولا ملحوق في التاريخ!

وتجمعت "النفس" في وحدة موحدة الاتجاه..

لم تعد لحظة الجسد تسير في اتجاه، ولحظة العقل في اتجاه، ولحظة الروح في اتجاه، وعاد كما خلقه الله، تلك الوحدة الشاملة التي يتألف منها "الإنسان"

وتوحد سلوك الإنسان على منهج موحد..

ومن ثم تجمعت ألوان النشاط المختلفة لينتظمها منهج واحد، مستمد من عند الله الواحد، وموجه إليه.

واصطبغ السلوك كله بصبغة واحدة على اختلاف مفرداته: صبغة الالتزام بما جاء من عند الله، وصار هذا هو السمت العام لذلك "الإنسان" وتوحد – تبعاً لذلك كله – طريق الدنيا وطريق الآخرة..

❖❖❖

لقد كان من شدة التركيز في القرآن على البعث والحساب والجزاء، ومن الحيوية الفياضة في عرض مشاهد القيامة في القرآن، أن عاش المسلمون بحسهم وخيالهم في اليوم الآخر كأنما يرونه أمامهم اللحظة ويعيشون أحداثه، بل كأنما الدنيا بكل واقعها ماضٍ قد كان، والآخرة بأحداثها هي الحاضر الآن!

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطُّورِ: ٢٥– ٢٨].

وبهذا الإيمان الراسخ باليوم الآخر إلى درجة اليقين، وبهذه الحيوية في العرض، التي تهز الوجدان من أعماقه، كان الواحد منهم يعيش لحظته الحاضرة، ثم يعيش – في التوّ – جزاءها في الآخرة! ها هو ذا يعمل العمل في هذه اللحظة في الحياة الدنيا، ثم يتصور موقعه من الجنة حين يكون عمله في طاعة الله، ثم ها هو ذا يعمل العمل في هذه اللحظة في الحياة الدنيا – أو يهم به – ثم ينظر – في خوف وإشفاق – ليرى موقعه من النار إذا كان العمل في معصية الله..

ومن ثم صلحت أعمالهم في الحياة الدنيا – في غالبيتها العظمى – بل ارتفعت إلى تلك الآفاق العالية التي تشبه المعجزات.. لم يكونوا ملائكة، ولا كان مطلوبًا منهم أن يخرجوا عن بشريتهم.. والبشر كلهم عرضة للخطأ إلا المعصومين عليهم صلوات الله وسلامه، ولكنهم – إذا أخطأوا – سرعان ما يتوبون.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٣٥– ١٣٦].

❖❖❖

هل ميزان الحياة الآخرة غير ميزان الحياة الدنيا؟ هل يكون العمل حَسَناً في ميزان الدنيا وقبيحًا في ميزان الآخرة؟ أو قبيحًا في ميزان الدنيا وحسنًا في ميزان الآخرة؟

أليس هو ذات الميزان وذات المعيار: ما كان حسنًا في الدنيا فجزاؤه الحسنى في الآخرة، وما كان شرًا في الدنيا فجزاؤه العذاب في الآخرة؟

﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يُونُسَ: ٢٦- ٢٧].

❖❖❖

حقيقة الموقف أن الدنيا منفصلة في حس صاحبها عن الآخرة، إما لأنه لا يؤمن بها أصلاً، وإما لأن اعتقاده بها ضعيف مبهم متداخل، لا يكوّن في حسه صورة واضحة، ولا يؤثر - من ثم - في فكره ولا مشاعره ولا سلوكه الواقعي.

والقضية في حسه على هذا النحو: جنة يوعد بها - على غير إيمان منه، أو إيمان يستوي وجوده وعدمه - ذات تكاليف في النفس والمال، وقعها في حسه أنها حرمان من المتاع، لأنه لا يريد أن يكتفي بالقدر الذي أباحه الله، إنما يريد أن يسترسل مع شهواته، ولا يستخدم جهاز "الضبط" الذي وهبه الله إياه ليتحكم في هذه الشهوات، وفي مقابل ذلك متاع قائم بالفعل، هو مسترسل فيه إلى أقصى المدى، ويقال له إن استمتاعه به على النحو الذي يزاوله سيحرمه من الجنة!

وحين صارت القضية على هذا النحو، وصار الخيار بين الجنة الموعودة مع الحرمان من المتاع الزائد عن الحد، وبين المتاع الطاغي مع الحرمان من الجنة في الآخرة الموعودة، فقد آثر الحياة الدنيا:

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ [النَّازِعَاتِ: ٣٧- ٣٩].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴾ [مُحَمَّدٍ: ١٢].

وقد آثر أن يستمتع بما بين يديه من المتاع الزائد عن الحد، لأن الحرمان منه أشد لذعًا في حسه من العذاب الذي توعده الله به، إما لأنه لا يؤمن بالآخرة أصلاً، فالعذاب المتوعد به في حسه وهمٌ لا حقيقة له، وإما لأنه ضعيف الإيمان بالآخرة، ومن ثم فإن ذلك العذاب، المنبهم في خياله، أخف وزنا في حسه من العذاب القريب الذي يحدثه حرمانه من المتاع..

وفي الحالين هي حالة غير سوية، تختل الموازين فيها في حس صاحبها، لأنه لا يؤمن إلا بما تدركه حواسه! ويغفل عن الدلالة المعنوية لما تدركه حواسه:

﴿ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ [الأَعْرَافِ: ١٧٩].

❖❖❖

القضية في حس الإنسان السوي مختلفة تمامًا..

إن الإنسان السوي - بادئ ذي بدء - لا يغلق روحه دون عالم الغيب، ولا يحصر نفسه في محيط ما تدركه حواسه فحسب، فقد زوده خالقه سبحانه - لكي يعينه على القيام بمهمة الخلافة التي خلقه من أجلها - بقدرتين متقابلتين، يؤدي بكل منهما جانبا من مهمة الخلافة، ويتوازن بهما معاً فلا يفقد توازنه من هنا ولا من هناك، إحداهما هي الإيمان بما تدركه الحواس والثانية هي الإيمان بالغيب، وبالقدرة الأولى يتعامل مع واقع الحس القريب، ومع الكون المادي من حوله، فيتعرف على خواص المادة، ويستثمر علمه في تحقيق ما سخر الله له من طاقات السماوات والأرض من أجل تحسين أحواله على الأرض..

وبالقدرة الثانية يتعامل مع الحقائق التي لا يدركها حسه - وإن كان يدرك آثار وجودها - والتي هي مفطور على الإيمان بها، والتعامل معها، والارتباط بها، كحقيقة الألوهية، وحقيقة النبوة والوحي الإلهي، وحقيقة البعث والجزاء، ليقوم بالجانب

الآخر – الأهم في الحقيقة – وهو إقامة العمارة المادية للأرض على مقتضى المنهج الرباني، فلا تكون مجرد عمارة مادية، ولا تكون محصورة في مطالب الجسد وملذاته، إنما ترتفع لتكون "حضارة" بالمعنى الحقيقي للحضارة.. أي عمارة تحيط بها قيم عليا، توجهها الوجهة اللائقة "بالإنسان" الذي خلقه الله من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله، ولا يتحقق مقتضى النفخة الروحية فيه إلا بهذه القيم المستمدة من الوحي الرباني، والتي يبقى الإنسان بدونها غارقًا في الطين، لا يقدر على الارتفاع عنه، لأنه يعطل في نفسه جهاز الارتفاع والتحليق..

وهذا الإنسان السوي – المتوازن في تركيبه بين قبضة الطين ونفخة الروح، المستمد نظام حياته من المنهج الرباني – ترتسم القضية في حسه بصورة مختلفة..

ففي الحياة الدنيا قدر من المتاع أباحه الله.. حدده الله بعلمه وحكمته، يعلم سبحانه أنه هو القدر المناسب للكيان البشري ولمصلحة الإنسان ذاته..

❖❖❖

التعلق بالدنيا، الذي يؤدي إلى الغفلة عن الآخرة، أمر لا يقبله الله من مؤمن ولا كافر، وإن اختلف الجزاء بين هذا وذاك..

ولكن هذا كله شيء، واعتبار الدنيا والآخرة معسكرين متقابلين إن اتجه الإنسان لأحدهما انفصل – بالضرورة – عن الآخر، ومن ثم ينبغي الاختيار بينهما لاختيار أحدهما ونبذ الآخر.. هذه قضية مختلفة لا سند لها من دين الله!

ولنستمع لقول رب العالمين:

﴿.. وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القَصَص: ٧٧].

وقوله تعالى:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأَعْرَافِ: ٣٢].

وتقف وقفة خاصة عند قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾

فذكر الزينة في هذا المجال له دلالته الخاصة، إذ الزينة جمال، والجمال شيء زائد على الضرورة، أي أن الذي يبيحه الله ﷻ لعباده ليس هو مجرد الضرورة التي تحفظ الحياة على أي صورة كانت، إنما هو شيء زائد على الضرورة، يصل إلى درجة الجمال..

أما الزهاد الذين احتج بهم الصوفية فهم على طريق آخر غير طريق الصوفية!

ولقد يشتبه المظهر لأول وهلة بين الزاهد والصوفي من بعض الجوانب.

كلاهما مترفع عن المتاع، منصرف عنه أكثر وقته، وكلاهما صارف همه إلى أنواع من العبادة لا تدع فرصة للاستمتاع بالمتاع المباح..

نعم.. ولكنهما يفترقان بعد ذلك! ويكاد يصل الافتراق بينهما إلى طرفي نقيض!

يفترقان في نوع العبادة التي يتجه كل منهما إليها.. أي أنهما في الحقيقة يفترقان في "مفهوم العبادة" ومن ثم يفترقان في منهج الحياة، وفي منهج السلوك..



إن الامتناع عن بعض الشهوات يحتاج بادئ ذي بدء إلى عزيمة قوية، لبناء "السد" الذي يقف في وجه هذه الشهوات، ثم إن هذا الامتناع ذاته، حين يقف في وجه التيار المتدفق للشهوات، يجمّع في النفس طاقة هائلة، رفيعة في ذاتها، تتجه إلى مستويات أعلى، وتنطلق في تلك المستويات العالية، كما يقف السد في وجه تيار الماء فيحجز جانبا منه، فيرتفع مستواه، فيصل إلى مستويات لم يكن يصل التيار إليها في مجراه الأصلي..

وإلى هنا تتشابه "العملية النفسية" التي تنشأ عن الزهد، والتي تنشأ عن التصوف.. وتتجمع في نفس الزاهد وفي نفس الصوفي طاقة نفسية هائلة، رفيعة المستوى، قابلة للتوجه إلى آفاق لا يصل إليها قط صاحب النفس المنساقة مع الشهوات..

ثم تختلف الآفاق..

زهاد وعباد ومجاهدون..

فأما زهاد الجيل الأول، وعلى رأسهم سيد الزهاد ﷺ فقد علمنا طبيعة الآفاق التي رفعهم إليها زهدهم في متاع الأرض..

الجهاد في سبيل الله، الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا، الجهاد ليكون الدين كله لله، الجهاد لإقامة العدل الرباني في واقع الأرض، الجهاد لإقامة المجتمع المثالي الذي يحقق في عالم الواقع ما يتخيله الناس في عالم المثال، الإيجابية الهائلة التي تغير الواقع المنحرف، وتنشئ بدلا منه الواقع السوي، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اللذان هما رسالة الأمة التي أخرجها الله لتكون خير أمة:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١١٠].

هذا، والزهاد – وعلى رأسهم رسول الله ﷺ – لا يحرّمون المتاع، إنما يرتفعون فوقه، فلا يعود يشغلهم عن الجهاد في تلك الآفاق العالية التي يجاهدون فيها، ولا عن الأهداف العالية التي يعملون بطاقتهم الإيجابية كلها لتحقيقها في عالم الواقع.

❖❖❖

أما الصوفية فماذا صنعوا بتلك الطاقة الهائلة التي وفرها في نفوسهم ترفعهم عن المتاع؟!

لقد صرفوها إلى نوع آخر من الجهاد.. جهاد الشيطان في داخل النفوس، وأوّلوا في سبيل ذلك كل آيات الجهاد الواردة في كتاب الله، حتى تلك التي تشمل ألفاظا صريحة تنص على قتال الكفار والمنافقين والغلظة عليهم!

وجهاد الشيطان مأمور به ولا شك.. ومن تحصيل الحاصل أن نقول: إن ذلك الجيل الفريد الذي حقق في عالم الواقع ما حقق من المُثُل الرفيعة، قد جاهد الشيطان وظفر في جهاده له بأكبر نصر عرفه التاريخ، ولكنهم ما جعلوا معركتهم مع الشيطان هي نهاية المطاف.. حتى بعد أن انتهى سلطانه من نفوسهم بشهادة العليم الخبير:

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النَّحْلِ: ٩٩– ١٠٠].

إنما كانت معركتهم مع الشيطان وظفرهم عليه هي نقطة الانطلاق التي ينطلقون منها إلى البناء.. إلى الجهاد.. إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. إلى إقامة العدل الرباني في الأرض.. إلى دك حصون الشرك وإقامة حصون الإيمان.. إلى إزالة الطواغيت وإقامة حكم الله.. إلى إنشاء القوة التي يرهبها أعداء الله..

لقد كانت سبيل الصوفية في معركتهم مع الشيطان هي قتل "النفس" التي يأوي إليها الشيطان حتى لا يجد له مأوى فينصرف! فإنما مأواه هو الشهوات المزينة للإنسان، يظل ينفث فيها وينفخ فيها حتى تشتعل، فيعجز صاحبها عن إطفائها فتزداد

اشتعالاً! أما إذا ماتت الشهوات فما عاد للشيطان مأوى في النفس يأوي إليه، وما عاد يستطيع أن يقوم بدوره الذي يضطلع به:

لذلك يظل الصوفي "يجاهد"، ويتحمل في سبيل ذلك الجهد، حتى يظفر أخيراً بقتل شهواته، لينصرف عنه الشيطان!

❖❖❖

ألا إن الزهد الإيجابي المقدام البنّاء، هو الذي يدفع أصحابه إلى الجهاد والمجالدة والمواجهة، لا إلى الانحسار في داخل النفس..

ألا إن الزهد الإيجابي المقدام هو الذي يحصِّنُ النفس ضد الفتنة لا الذي يقتل النفس للوقاية من الفتنة!

الزهـــــد في المتاع لا يعطل الإنتاج!

❖❖❖

وما نريد أن نظلم الصوفية فنحملها وحدها وزر الضعف والتخلف الذي أغرى الأعداء بالهجوم من كل صوب،

فقد كان مع الصوفية الفكر الإرجائي، والاستبداد السياسي، والتفلت من التكاليف، وغيرها من البدع والمعاصي والانحرافات...

كما كان من بين الصوفية من جاهد بسيفه لنشر الدعوة، ومن قاد الجيوش لقتال الأعداء، ومن وقف للسلطان الجائر يرده عن ظلم الناس.. وهؤلاء زهاد في الحقيقة وإن ألحقوا بالصوفية..

كما أن رجال الصوفية وفرقها هم الذين أبقوا العامة مرتبطين بدين الله – رغم البدع والانحرافات – حين عزّ العلماء، ولم يعد للعامة باب يلجون منه إلى الدين إلا باب الصوفية.

كما أنهم هم الذين حفظوا شيئا من ترابط الأمة المسلمة حين فرقتها السياسة والحرب، وجزأتها في دول متناحرة على الغلبة والسلطان..

ولكن هذا الجهد الذي بذلوه كله لا ينفي عنهم خطأ المنهج الذي أدى إلى فساد المفاهيم:

فصلُ الدنيا عن الآخرة، ووضعهما في موضع التضاد والتقابل، بحيث يصبح التعامل مع إحداهما بمثابة الامتناع عن التعامل مع الأخرى..

وحصر العبادة في الشعائر التعبدية، والتركيز عليها، وإهمال المفهوم الشامل للعبادة، الذي يشمل كل نشاط الإنسان..

ولا هذا من الإسلام.. ولا هذا من الإسلام!



مفهُوم الحَضارةِ وَعمارةِ الأرض

حين وقعت الأمة في هذه المجموعة من الانحرافات: تفريغ لا إله إلا الله من مقتضاها الحقيقي، وتحولها إلى كلمة تقال باللسان، بغير دلالة ولا رصيد واقعي، وحصر مفهوم العبادة في شعائر التعبد، وتحوّل عقيدة القضاء والقدر إلى سلبية وقعود عن الأخذ بالأسباب، وتخل عن دور الإنسان الإيجابي في الأرض، ووضع الدنيا والآخرة موضع التقابل والتخيير، ثم اختيار الآخرة وإهمال الدنيا..

حين وقعت كل هذه الانحرافات في حياة الأمة لم يكن غريبًا إذن أن يختل مفهومها عن الحضارة وأن تهمل عمارة الأرض.

❖❖❖

إن المفهوم الإسلامي للحضارة هو مفهوم العبادة..

هو تحقيق غاية الوجود الإنساني التي حددها قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذّاريَات: ٥٦].

هذه هي الغاية.. وذلك هو المعيار..

تحقيق غاية الوجود الإنساني هو الذي تنشأ عنه الحضارة في الواقع البشري، وهو المعيار الذي تقوّم به صعودا أو هبوطا، واستقامة أو انحرافا.

وحين تختلف النظرة إلى غاية الوجود الإنساني تختلف النظرة إلى الحضارة، وتختلف النظرة كذلك إلى التاريخ.

❖❖❖

إن إقامة شريعة الله في الأرض، والحكم بما أنزل الله، وإقامة العدل الرباني في الأرض هو المقتضى المباشر لـ: لا إله إلا الله، جزء من المفهوم الإسلامي للحضارة.

وإن إقامة الحياة كلها – بكل ألوان النشاط فيها – على قاعدة أخلاقية مدارها تقوى الله وخشيته.. فتكون السياسة ذات أخلاق قائمة على حكم ولي الأمر بشريعة الله، والسمع والطاعة من الأمة لولي الأمر فيما يأمر به موافقًا لشريعة الله، والنصح لله ورسوله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتعاون على البر والتقوى، وعدم التعاون على الإثم والعدوان، وإقامة الأمر على الشورى التي أمر بها الله.. ويكون الاقتصاد له أخلاق، قائمة على الالتزام بما أحله الله، وتحريم ما حرم الله من ربا واحتكار وغش وسلب ونهب، وسرقة وغصب، وأكل مال الأجير، وأكل أموال الناس بالباطل، وقائمة على تطهير المال بأداء الزكاة، والإنفاق في سبيل الله، وعدم الإنفاق في ترف أو سرف أو معصية أو مخيلة.. وتكون علاقات المجتمع ذات أخلاق قائمة على التواد والتحاب والتكافل، والتعاون على البر والتقوى، وحرمة الدم والعرض والمال، وكظم الغيب والعفو عن الناس، والكف عن الغمز واللمز والغيبة والنميمة والتجسس والاطلاع على العورات.. وتكون علاقات الأسرة ذات أخلاق.. وعلاقات الجنسين ذات أخلاق.. إن إقامة الحياة كلها على هذه القاعدة الأخلاقية جزء من المفهوم الإسلامي للحضارة.

وإن الوفاء بالمواثيق – يستوي في ذلك العقود الفردية أو المعاهدات والمواثيق الدولية– جزء من المفهوم الإسلامي للحضارة.

وإن طلب العلم، سواء العلم بدين الله وأحكامه، أو العلم بسنن الله في الكون وخواص المادة، الذي يعين على استخلاص ما سخر الله للإنسان من طاقات السماوات والأرض، واستخدامها في عمارة الأرض، أو العلم بسنن الله في الحياة البشرية، التي

يقوم على أساسها مجتمع صالح، أو العلم بالتاريخ البشري وما فيه من فترات الهدى والضلال، والنتائج المترتبة على كل منهما في واقع الحياة البشرية.. إن هذا العلم بمختلف فروعه واتجاهاته، جزء من المفهوم الإسلامي للحضارة.

❖❖❖

إن إقامة فنون نظيفة، تلتفت إلى الجمال في الكون وفي الحياة البشرية وتعبر عنه في أداء جميل.. فنون لا تزين الفاحشة لأن الفاحشة ليست جمالاً ولكنها هبوط.. ولا تزين لحظة الضعف لأنها ليست جمالاً إنما هي لحظة غفلة عن إدراك غاية الوجود الإنساني، أو لحظة تقصير في تحقيق ذلك الوجود.. ولا تزين الانحراف والشذوذ لأنه ليس جمالاً، وإنما هو نشاز نافر عن الجمال، ولا تزين عبادة الشيطان وعبادة الهوى والشهوات، لأنها ليست جمالاً، وإنما هي حطة للإنسان الذي كرمه الله وفضله، وأراد له أن يتحرر من كل عبودية زائفة تزري بكيانه وتستذله.. إن إقامة مثل هذه الفنون جزء من المفهوم الإسلامي للحضارة..

وهذا كله، وما كان في مثل اتجاهه، هو الجانب المعنوي من الحضارة في المفهوم الإسلامي.

❖❖❖

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البَقَرَةِ: ٣٠].

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هُودٍ:٦١].

إذا اعتبرنا إقامة لا إله إلا الله في الأرض، أي إزالة الشرك، وإقامة التوحيد، وإقامة العدل الرباني والأخلاق الإيمانية جانبا من "العمارة" لأن الأرض لا تعمر حقًا إلا تحت المظلة الإيمانية التي تقيها من الانحراف والفساد والشر.. فإن الجانب الآخر هو العمارة المادية، باستخلاص طاقات السماوات والأرض وتسخيرها لخير الإنسان.

وهذا الجانب من العمارة يحتاج إلى كدح ذهني وعضلي لتحقيقه.. يحتاج إلى معرفة خواص المادة والسنن الربانية التي يُجْري الله بها هذا الكون (والتي يسمونها في الجاهلية المعاصرة "قوانين الطبيعة") ثم استخدام هذه المعرفة في المجال التطبيقي في الفيزياء والكيمياء والطب والهندسة وسائر العلوم..

وحين تعتبر الجاهلية المعاصرة هذا الجانب هو الحضارة، أو هو أهم ما في الحضارة، وأبرز منتجات الإنسان، فإن الإسلام يشترط شرطًا واحدًا لإدخال هذه الإنجازات في مدلول الحضارة، هو أن تكون كلها قائمة وفق المنهج الرباني، غير حائدة عن مقتضياته..

❖❖❖

إن الأمم تبدأ نشأتها متجمعة العزيمة مشحوذة الهمة متوفرة الجهد، لأنها تواجه تحديات جمة، ومن شأن التحديات أن تشحذ الهمة وتستنفر الجهد وتجمّع العزيمة وتمضي بضعة أجيال حتى يتم "الإنجاز" بالصورة التي تحقق الوجود وتؤمّنه وتمكّن له، وتتغلب على التحديات.. وعندئذٍ يحدث نوع من الاطمئنان إلى ما تم إنجازه بالفعل، فيحدث معه نوع من التراخي، وفتور الهمة، والانصراف إلى الدعة والترف، وخاصة مع كثرة الموارد المالية التي تصاحب النجاح المادي في أغلب الأحيان..

وحين يبدأ الترف يبدأ الانهيار..

وتجيء الأخطار والأمة لاهية في ترفها، مشغولة بمتاع الأرض القريب، غير مقدّرة للخطر الذي يقترب منها، مخدوعة بقوتها، أو مستنيمة لهواتف الراحة والسلامة والإخلاد إلى الأرض، مبعدة عنها صوت النذير!

وتمضي السنة الربانية بتدمير المترفين:

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإِسْرَاءِ: ١٦].
والسنن الربانية لا تحابي أحدًا من الخلق، مهما زعموا لأنفسهم من مسوغات تسوغ المحاباة!

❖❖❖

لقد استيقظ العالم الإسلامي على الصدمة، حين وجد كل شيء في داخله ينهار ويقع في قبضة الأعداء.

لقد كان الانهيار نتيجة طبيعية لكل ما حدث من انحراف خلال القرون.

الخواء الذي أصاب مفهوم لا إله إلا الله، الخواء الذي أصاب مفهوم العبادة، السلبية المتواكلة المريضة، الانصراف عن وسائل القوة التي أمر الله بإعدادها لأعداء الله.

ولكن الصدمة العنيفة – الموازية في شدتها لشدة الخواء – أحدثت هزيمة داخلية عنيفة لم يفق منها "المسلمون المعاصرون" بعد، إلا الذين رجعوا إلى حقيقة هذا الدين، ومارسوا تلك الحقيقة في عالم الواقع.. تلك الهزيمة الروحية هي التي مهدت في نفوسهم لتقبل الغزو الفكري بلا مناقشة ولا تدبر ولا تفكير..

ومن بين المفاهيم الضالة التي أدخلها الغزو الفكري في قلوبهم ورؤوسهم مفهوم الحضارة وعمارة الأرض..

لقد توهموا – بتأثير الغزو الفكري – أنهم تأخروا لأنهم كانوا مسلمين!

وما أبعد هذا الوهم عن الحقيقة! فيوم تأخروا ما كان أبعدهم يومئذٍ عن الإسلام! وإن بعدهم عن حقيقة الإسلام لهو الذي أدى بهم إلى ذلك التخلف المعيب..

ولكن هذا الوهم جعلهم يبحثون عن الحلول لا في إسلامهم – الذي انسلخوا منه – وإنما في الحضارة الغربية.. أي في الجاهلية المعاصرة!

وقام "المسلمون المعاصرون" يتحضرون! قاموا ينفضون عن أنفسهم غبار التخلف، ويحاولون أن يعوضوا في سنوات ما تخلفوه خلال عدة قرون!

"يتحضرون" على النهج الغربي، منسلخين أو نافرين من منهج الله.

قاموا يأخذون ببعض أسباب القوة المادية – على فتور ظاهر وتقاعس – بينما يغرقون في الترف الغربي إلى أذقانهم، في صورة بيوت حديثة، وفراش وثير، وسيارات وطائرات، وأفران وثلاجات، وملابس مزوقة.. وخمر وميسر، وفوضى جنسية تسمى "الانطلاق"!

ودع عنك المفاسد الخلقية التي يقر الجميع بأنها مفاسد، وإن كانوا في دخيلة أنفسهم مسرورين بها، راغبين في المزيد منها، متطلعين إلى اليوم الذي تصبح فيه هي "العملة السارية"، فيمارسوا – باسم التحضر والتقدم – كل ما تصبو إليه نفوسهم من أرجاس..

وخذ الجانب الحقيقي من التقدم المادي الذي يصبون إليه: عملية التصنيع، وزيادة الإنتاج، ورفع مستوى المعيشة، وزيادة الاستهلاك في الكهرباء!

ما قيمة ذلك كله بغير قيم ولا مبادئ ولا أخلاق؟! ما قيمته بغير "الإسلام" الذي انسلخوا منه ونبذوه؟!

هل يحسبون أنهم سيخرجون بذلك من ذلتهم وهوانهم على الناس؟!

❖❖❖

أضواءٌ علَى المُستقبَل

عرضنا فيما مضى من الكتاب بعض المفاهيم الرئيسية للإسلام، وبيّنا كيف كانت في حس الجيل الأول الذي تلقى الدين تلقيا مباشرا من رسول الله ﷺ وتربى على عينه، والأجيال التالية التي كانت على مقربة من منابع النور.. وكيف تحوّلت في حس الأجيال المتأخرة تحولاً خطيرًا عن صورتها الصحيحة.. وكيف أثر ذلك التحول في حياة المسلمين ، فهبط بهم من الذروة التي كانوا عليها إلى الحضيض الذي يعيشونه اليوم ، غثاء كغثاء السيل.

ويأتي السؤال طبيعيًا بعد هذا العرض.. وماذا بعد؟!

ماذا بعد أن وصلت الأمور إلى هذه الصورة، وبعدت الأمة كل هذا البعد عن حقيقة الإسلام؟!

فأما الإجابة على هذا السؤال فقد تكفل بها قدر الله الذي أخرج "الصحوة الإسلامية" إلى الوجود :

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يُوسُفَ: ٢١].

ولكن الطريق أمام الصحوة ذاتها مملوء بالعقبات، مملوء بالأشواك مملوء بالعثرات، مملوء بالوحوش الضارية تتلقف السائرين فيه لتفتك بهم أولاً بأول، لأنها تعلم جيدا أنها إن لم تفتك بهم اليوم فغداً يسدون عليها الطريق!

ولكن المبشرات أكبر من المعوّقات.. وقدر الله ماضٍ إلى غايته لا يقف في طريقه شيء!

❖❖❖

على الصحوة أن تعرف قبل كل شيء عدة النصر في المعركة الضارية التي تقوم بينها وبين أعداء الله، والتي عليها أن تخوضها لا محالة رضيت أو كرهت..

ينبغي أولاً أن تدرك جيدًا أن المعركة ليست معركة هذه الجماعة ولا تلك، ولا معركة هذا العدو أو ذاك.. إنما هي معركة الأمة الإسلامية جميعًا مع أعدائها جميعًا.. فالخصومة قائمة أصلاً بين أعداء الله وبين الإسلام، حيثما كان الأعداء ، وحيثما كان الإسلام..

ومقتضى ذلك أن تعلم أن النصر لا يتم والمعركة قائمة بين الأعداء وبين جماعات منعزلة هنا وهناك، تستفرد بها الوحوش الضارية وتغتالها على تمكن.. ولكنه يتم – بتوفيق الله – حين تصبح المعركة هي معركة "الأمة الإسلامية" على اتساعها ، إزاء الأعداء المتكتلين في حرب الإسلام كتلة واحدة، وإن تفرقوا في كل شيء عدا ذاك!

وحين نقول الأمة على اتساعها يظن بعض الناس أننا نقصد كل فرد من أفرادها ، وهذا مستحيل! فلا يوجد مجتمع واحد في التاريخ – فضلا عن أمة يبلغ تعدادها اليوم ألف مليون من البشر – يكون كله على قلب رجل واحد ، وعلى مستوى واحد من الرفعة، أو الصلابة، أو التوجه إلى الخير..

ولكنا نقصد أن توجد في هذه الأمة قاعدة صلبة – كالقاعدة التي قامت في مجتمع الرسول ﷺ يبلغ من قوتها وصلابتها أن تحمل ضعاف الإيمان، والمعوّقين، والمبطئين، والمتثاقلين، والمنافقين، وتسير بهم جميعًا إلى هدفها ، كما سارت القاعدة الصلبة التي رباها رسول الله ﷺ على عينه، ولم يعوّقها وجود هذه الفئات كلها عن النصر الحاسم على أعداء الله..



مِن سُنن الله الجارِية

أن ينتفش الباطل في غيبة الحق فإذا جاء الحق زهق الباطل..

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإِسْرَاءِ: ٨١].

ومن سنن الله الجارية أن يتدافع الحق والباطل ليتم إنقاذ الأرض من الفساد:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البَقَرَةِ: ٢٥١].

ومن سنن الله الجارية أن يكون للحق جنود يؤمنون به، لأن الحق المجرد من الجنود لا ينتصر، وأن يكون هؤلاء الجنود مخلصين لله، مترابطين على العقيدة، مؤتلفة قلوبهم عليها:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفَالِ: ٦٢- ٦٣].

وأن يكون هؤلاء الجنود صادقي التوكل على الله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفَالِ: ٦٤].

وأن يكونوا مجاهدين في سبيل الله، إذا دعت دواعي الجهاد يقاتلون صابرين محتسبين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۞ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفَالِ: ٦٥- ٦٦].

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المُجَادلَةِ: ٢١].

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأَنبِيَاءِ: ١٠٥].

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصَّافَّتِ: ١٧١- ١٧٣].

❖❖❖

لا شك أن كلا من الجاهلية الفارسية والجاهلية الرومانية كان لها منجزات مادية وتنظيمية ضخمة ونافعة، ولا شك أن بعض القيم وبعض الأفكار النافعة كان موجودًا في كل من الجاهليتين..

ولكن ذلك كله لم يحمِ هاتين الجاهليتين من الانهيار أمام الإسلام، الذي يقوم كله على القاعدة الصحيحة السليمة، التي تحقق الغاية الحقيقية للوجود الإنساني، وهي عبادة الله، بالمعنى الواسع الشامل للعبادة الذي بيناه من قبل، رغم قلة العدد والعدة في جانب المسلمين يومئذ، ورغم الفراغ من المنجزات المادية والتنظيمية إلا القليل الذي لا يكاد يذكر.

وتلك سنة جارية، ومعنى كونها جارية أنها يمكن أن تتحقق – بقدر من الله – في كل مرة تتحقق مقوماتها وعناصرها، وتتم المواجهة بمقتضاها..

ومن جانب الجاهلية فكل المقومات والعناصر قائمة.. قوة مادية هائلة، وفراغ هائل في عالم القيم والمبادئ والأخلاق..

ويستلزم سريان السنة الجارية – وهي تجري في كل مرة بقدر من الله – أن يكون المسلمون في المواجهة قائمين على الشرط، كما كان المسلمون في المواجهة الأولى، فيتم النصر – بقدر من الله – كما تم أول مرة، ويتغير وجه الأرض كما تغيّر من قبل..

ولا شك عندي – من وعد الله ورسوله ﷺ.. أن ذلك سيحدث..

ولكن الصحوة ينبغي أن تدرك شرط النصر في تلك المواجهة..

❖❖❖

إن المسلمين لن يسبقوا الجاهلية المعاصرة في التقدم العلمي والمادي والتكنولوجي والتنظيمي في الوقت الحاضر. ولكنهم – مع ذلك – يملكون ما لا تملك الجاهلية اليوم ولا غدًا ولا في أي وقت.. يملكون العقيدة الصحيحة والمنهج الصحيح.. المنهج الشامل الكامل المتوازن المترابط ، الذي أنزله الله العليم الخبير ليصلح به الأرض، ويصلح حياة الناس.

وحين يحققون العقيدة الصحيحة في ذوات أنفسهم، ويحققون المنهج الصحيح في واقع حياتهم، تجري السنة بقدر من الله، وينتصر الإسلام في المواجهة الحاضرة بينه وبين الجاهلية.. ويتغير وجه الأرض.

وينتصر الحق بجدارة – حسب السنن الجارية – ويكون له دور حقيقي يؤديه في حياة الناس لأنه يعطي الناس بالفعل ما هم في حاجة حقيقية إليه، ولو لم يشعروا بتلك الحاجة وهم سادرون في غيهم، بل ولو كانوا رافضين للخير والهدى في مبدأ الأمر، كما يكون الناس في كل جاهلية.. ولكن الفطرة البشرية تقدره، حين تراه مطبقًا في عالم الواقع – في الصورة الباهرة التي يلتقي فيها الواقع بالمثال – وعندئذ يشعر الناس بما يشتملون عليه من نقص، ويهرعون إلى الكمال..

وسيزيدهم طمأنينة إلى المنهج الرباني وإقبالاً عليه، أن يروا – من خلال التجربة الواقعية – أن الإسلام لن يهدم تقدمهم العلمي والتكنولوجي والتنظيمي، إنما سيقيمه فقط على القاعدة الإيمانية الصحيحة، ويمنحه "الأخلاق" التي تسلبه إياها الجاهلية، ويمنحه "الروح" التي تجعل منه إنجازًا لائقًا "بالإنسان"..

من أجل ذلك كله ينبغي للصحوة أن تقدر الأمر حق قدره، وتمنحه الطاقة اللازمة لإنجازه..

إنه أمر جاد.. وهو كذلك أمر خطير..

إنه ليس نزهة قريبة.. ولا هو أمر يخصهم وحدهم في ذوات أنفسهم..

إنه أمر الأمة الإسلامية بأكملها.. وأمر البشرية كذلك، من شاء منهم أن يستقيم..

❖❖❖

إن على "الصحوة" في كل بلد إسلامي أن تربي القاعدة الصلبة على المستوى الفائق، ثم تدعو إليها الجماهير..

وليس هنا بيان منهج التربية اللازم لبناء القاعدة الصلبة على ذلك المستوى الفائق، ولا منهج الدعوة التي توجه إلى الجماهير.. ولكنا نشير هنا إلى أمر أساسي، سواء في بناء القاعدة أو في دعوة الجماهير.. إنه لا بد أولاً من تصحيح المفاهيم.. إذ كيف تبنى القاعدة على المفاهيم الخاطئة للإسلام؟!

كيف تبنى قاعدة صلبة على الفكر الإرجائي الذي يقول: إن الإيمان هو التصديق والإقرار؟! وإن العمل ليس داخلاً في مسمى الإيمان؟ وإنه من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملاً واحداً من أعمال الإسلام؟!

كيف تبنى قاعدة صلبة على مفهوم قاصر للعبادة يحصرها في الشعائر التعبدية، ويخرج العمل كله من دائرة العبادة، ويخرج الأخلاق، ويقسم الحياة إلى "ساعة لقلبك وساعة لربك" فتنقلب ساعة القلب إلى لهو عابث، وساعة الرب إلى مجرد أداء للشعائر بغير مقتضى واقعي في سلوك الناس؟!

وكيف تبنى على عقيدة للقضاء والقدر سلبية مخذّلة متواكلة لا تأخذ بالأسباب؟!

وكيف تبنى على تصور خاطئ يفصل ما بين الدنيا والآخرة، ويجنح بالسلوك سواء لحساب هذه أو حساب تلك؟!

وكيف تبنى على إهمالٍ لعمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني الشامل المتكامل الذي ينشئ الحضارة الخليقة بالإنسان؟!

وماذا تستطيع مثل هذه القاعدة في الصراع الهائل مع الجاهلية؟! وماذا تمنح الناس لتحبب إليهم اعتناق الحق والدخول فيه؟!

وكذلك الدعوة الموجهة إلى الجماهير، لتكون سندًا للقاعدة الصلبة بدلاً من أن تكون حملاً عليها..

لماذا نقوم بالدعوة أصلاً إن لم نغير عند الناس مفاهيمهم الخاطئة عن الإسلام؟!

لأي هدف ندعوهم إذا قلنا لهم إن الإيمان هو التصديق والإقرار، وإن العمل ليس داخلاً في مسمى الإيمان، وإنه من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن، ولو لم يعمل عملاً واحدًا من أعمال الإسلام؟!

هل ندعوهم لنثبت فيهم الأسباب التي أدت بهم إلى الضياع والتيه، وجعلتهم غثاء كغثاء السيل؟! سواء ما وقعوا فيه من شرك الاعتقاد عن طريق عبادة الأولياء والأضرحة والمشايخ، أو شرك الاتباع، باتباع غير ما أنزل الله، واتخاذ البشر – المشرعين من عند أنفسهم – أربابًا من دون الله؟!

أم ندعوهم ليغيروا ما بأنفسهم فيغير الله لهم؟!

❖❖❖

لا بد في جميع الأحوال من تصحيح المفاهيم..

وحين تصحح المفاهيم بالفعل، وتتربى على المفاهيم الصحيحة قاعدة صلبة، تساندها الجماهير المؤمنة الواعية التي تمارس الإسلام في عالم الواقع.. عندئذ يتحقق الوعد الذي وعده رسول الله ﷺ: **(تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إن شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة).**

وعندئذ يتغير وجه الأرض..

وتتحقق للإسلام جولة جديدة، يخرج فيها الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله. ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة..

﴿**وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ**﴾ [الرُّوم: ٤– ٥].

الفهـــرس

مقدمة المختصر	١
من المقدمة	٣
مفهوم "لا إله إلا الله"	٥
مفهوم العبـــادة	١٢
مفهوم القضاء والقدر	١٨
مفهوم الدنيـــا والآخرة	٢١
مفهوم الحضارة وعمارة الأرض	٢٧
أضواء على المستقبل	٣٠
من سنن الله الجارية	٣١